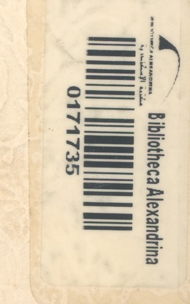
الإسلام والطب الحديث

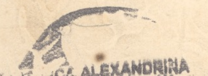
بقلم

الدكتور عبد العزيز اسماعيل

مطبعة الاعتماد

١٣٥٧ — ١٩٣٨







بقلم

الدكتور عبد العزيز اسماعيل

مطبعة الاعتماد

١٣٥٧ — ١٩٣٨

كلمة

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ **محمد مصطفى المراغى** شيخ الجامع الأزهر بكلمة قيمة فى هذا الكتاب نرى أن نحلي جيده بها، شاكرين لفضيلته هذا التشجيع ، قال حفظه الله :

قرأت لسعادة الطبيب النطاسى عبد العزيز اسماعيل باشا نتفاً مما كان يكتب له بمجلة الأزهر تحت عنوان (الاسلام والطب الحديث) فأعجبنى منه ما توخاه من التوفيق بين معانى بعض الآيات القرآنية الكريمة وبين مقررات الطب الحديث ، وحمدت له هذه النزعة العلمية التى لو تحلى بها كل مبرز فى فرع من فروع العلم لاجتمع لدينا ذخر عظيم من هذه التطبيقات الثمينة تستفيد منه الناشئة الحديثة زيادة معرفة باعجاز القرآن ، وإيقان بأن الله ما فرط فى كتابه من شىء .

لست أريد من هذا أن أقول إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلا بالأسلوب التعليمي المعروف ، وإنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل مايهم الانسان معرفته والعمل به ليبلغ درجة الكمال جسدا وروحا ، وترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها فى الزمان الذى هم عائشون فيه .

مثال ذلك أن الله تعالى قال فيما يتعلق بحفظ النفس من المهلكات : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » فهذا أصل يبنى عليه علم صحة الأبدان ، وعلى أهل الذكر فيه تفصيل جزئياته بسرد ضروب المبيدات للصحة ، من الأهوية الفاسدة ، والدور الرطبة ، والأغذية الرديئة الخ .

مثال آخر : قال جل وعز فى مسألة فطام الرضيع : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » ، فهذه كلية تحتاج جزئيات كثيرة يتولى الأطباء تفصيلها ، كبيان أسباب فائدة الرضاعة إن امتدت إلى عامين ، ومضار قطعها قبل الحد المناسب . وهذا مافعله سعادة الطبيب الجليل ، فقد قال فى هذا الموطن : «وقد تغيرت النظريات الطبية فى هذه المدة ، فقد كان الأطباء ينصحون بالرضاعة مدة تسعة أشهر فقط ، وأحيانا سنتين ، ولكن آخر تقرير فى سنة ١٩٣٣ عن فائدة الرضاعة الطبيعية للجسم والأسنان

يقول : « إن المدة يجب أن تكون فوق السنة ، ويستحسن أن تكون سنتين كاملتين » .

وقد استطرد سعادته فى كتابه إلى ذكر مسائل من علوم شتى مما له اتصال وثيق بالمسائل الطبية ، فجاء كتابه على صغر حجمه محتويا على معلومات ثمينة يلذ الاطلاع عليها .

ولسنا فى حاجة للاشادة بتبريز طبيبنا النابغة فى الشئون الصحية والطبية ، وقد جاء كتابه هذا ثمرة تفكير وتدبر فيما يختص بصناعته من الآيات القرءانية ، وهى ثمرة يرجى أن يكون لها تأثير عظيم فى التدليل على إعجاز القرآن الكريم من الناحية الطبية . وقد رجونا أن يحتذى أصحاب النبوغ فى فروع العلم شاكلة سعادة عبد العزيز اسماعيل باشا ، كل فيما تخصص فيه لفائدة النابتة الحديثة التى نود أن تجد فى كتاب الله مايؤثر على عقليتها من أخص ما تشتغل به فى دراستها . والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ؟

محمد مصطفى المراغى

كلمة للفيلسوف الاسلامى

الأستاذ محمد فريد وجدى

لا مشاحة فى أن سعادة الدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا يعتبر علما من أعلام الطب فى الشرق ، ومكانته اليوم من هذه الصناعة الشريفة تشبه مكانة ابن سينا وأبى بكر الرازى فى العهد الذهبى للعلم عند العرب . وقد حصل على هذه المنزلة الرفيعة بصفات عقلية ونفسية امتاز بها بين معاصريه ، فهو مع ما عب من ينابيع العلم الغربى بين ظهرانى أئمته وأقطابه لم تتأثر نفسيته العربية بشىء من بهرج تلك المدنية ، وبخاصة فى ناحيتها المادية . فقد رحل فى طلب العلم مصريا مؤمنا ، وعاد كما ذهب مصريا مؤمنا ، وهذه ميزة لم يفز بها الا القليلون ممن مكثوا فى تلك الربوع قدر ما مكث ، ونهل من علومها قدر ما نهل .

على أنه لم يكتف بأن ذهب وعاد سليما فى جوهره ، حريصا على شرقيته ، قويا فى عقيدته ، ولكنه زاد على هذا ميلا إلى تعزيز هذه الصبغة فيه ، وبثها فى غيره بحاله وقاله وقلمه . فما كاد يجد فرصة فى الوقت لاظهار خبيئة نفسه فى خلال أعماله الكثيرة ، حتى نشر فصولا فى جريدة البلاغ تحت عنوان (الاسلام والطب)

الحديث) كان لها وقع عظيم فى نفوس القارئين ، وشغفوا باقتنائها إلى حد أنهم حفظوا الاعداد التى نشرت فيها تلك المقالات للرجوع اليها عند الحاجة

فرأيت أن مجلة الأزهر أولى بحفظ هذه المعارف القيمة ، وإذاعتها للعالم الاسلامى فى الخافقين ، فعملت على نشرها تباعا حتى تمت ، فكانت فائدة القراء بها أجزل ، ودائرة شيوعها أوسع ، لأن المجلة تمثل بين الكتب ، ويسهل قراءتها وتداولها إلى ما شاء الله

ولكن أبت همة الباشا الطبيب إلا أن يجعلها كتابا مستقلا ، فأوعز بطبعها ، فجاءت سفرا أنيقا جمع الى جمال المظهر جلال المخبر ، فاستحق من قراء العربية ما هو أهله من شكر جم ، وثناء عظيم

لم يقتصر طبيبنا الكبير على البحوث التى يدل عليها عنوان كتابه ، ولكنه تناول فى جولاته العلمية مواضيع جليلة اقتضاها المقام اقتضاء منطقيا ، فأتى بجانب الكلام عن اسرار الوضوء والصيام، ومضار الخمر مثلا ، كلاما عن الحيـــاة من حيث هى ، وموضوع خروج الحي من الميت ، وهو موضوع بيولوجى محض نظر سعادته اليه تحت ضوء القرآن ، وبحث فى تكوين الجنين فى بطن أمه ، وفى الأطوار التى يدخل فيها ، وهذا أحد مطالب علم خاص يدعى علم الاجنة ، ونظر فى خلق آدم وأدوار حياة الانسان ، وبدء الخلق ، وهو من أهم أغراض علم الانتروبولوجيا . ثم استطرد إلى ذكر النوم وضرورته للحياة ، وإفرازات الجسم وحاجة الحياة اليه ،

ولقاح الأزهار ، وتأثير العواطف فى الجسم ، وهذه كلها بحوث تتعلق بعلوم مختلفة

ثم تمشى مع منطق البحث الذى هو بصدده ، فأداه إلى مسائل عويصة من علم الكلام كالقضاء والقدر، وخلق عيسى عليه السلام ، وعلم الغيب والفرق بين المعجزات والمخترعات . ولم يحجم سعادته عما أداه اليه الاستطراد حتى تكلم فى حكمة المصائب التى تتعاور الانسان ، وهو من أخص مسائل الفلسفة . تناول سعادته كل هذه المواضيع بحرية واستقلال ، فى النظر والاستدلال ، فتأدى إلى نتائج جديرة بانعام الروية ، وطول التفكير

هذا الكتاب يفتح للمتدبرين فى آيات القرآن الكريم مجالا فسيحا لفهم آياته المشيرة إلى الكائنات الأرضية فهماً يسيغه العلم الحديث ، ويستهوى عقول الذين يقدسونه . فما أجدره أن ينتشر بين طلبة الجامعة ليكون باعثا لهم على تلاوة القرآن ، والاستهداء بنوره ، وما أخلقه أيضا أن يذاع بين طلاب العلم الدينى ليحبب اليهم العلم الحديث ، ويثبت لهم أنه أصبح أداة لاظهار مكنونات الكتاب الكريم ، واذاعة آياته ، وإثبات إعجازه !

من أحسن ما نقدمه للقراء مثالا من هذا القبيل ذهابه فى تفسير معنى العلق فى قوله تعالى : « خلق الانسان من علق » إلى أن المراد بها الحيوانات الميكروسكوبية السابحة فى مادة الرجل لا الدم المتجمد كما يذهب اليه المفسرون ، فقال :

« يقول تعالى : إنه يكون أولا نطفة ثم يصير علقة ، وصحيح أن شكله يكون مستطيلا مثل العلقة تماما ، ويستمر كذلك فى الأربعة الأسابيع الأولى تقريبا . وإذا عرفنا أن طوله لا يزيد عن خمس السنتيمتر الواحد ، وأنه لا يميز بالعين المجردة تماما ، وأن أول ميكروسكوب عملت سنة ١٦٨٣ أى بعد ألف سنة من نزول القرآن ، عرفنا أنه كلام الله تعالى

« على أن الجنين يصير بعد ذلك مستديرا بغير انتظام ، ومكورا ، ويبقى كذلك بضعة أسابيع ، وقد سماه الخالق مضغة لكثرة الشبه بينه وبين قطعة اللحم الممضوغة ، وبعدها تظهر العظام واللحم (العضلات) التى تتصل بها كما وضعت تماما .

« ويعلمنا القرآن أن الجنين له ثلاث أغشية سماها ظلمات ، هى الغشاء المنبارى . والخوربون ، والغشاء اللفائفى ، مع أنها لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق ، وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة » .

نقول : مثل هذه المعجزة العلمية ولها أشباه كثيرة فى السفر الذى بين أيدينا ، مما يجب أن يذاع بين أهل العلم الجديد ، فانه من أفضل الذرائع لتحبيبهم فى تلاوة القرآن ، وفى تلاوته كل ما نرجوه لهم من سعادة الحياتين ؟

محمد فريد وجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أنزل الله القرآن الكريم هدى للناس فى أمور دنياهم وأخراهم ، وقد جعل معجزة لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . ومن إعجازه فصاحته التى اعترف بها العرب وهم أعلى الأمم كعبا فى البيان ، أما المتأخرون أمثالنا ، فأكثرهم لا يقدر الفصاحة حق تقديرها لعدم تبحرهم فيها ، ولذا كان من الضرورى إظهار إعجاز القرآن من نواح أخرى ؛ فالقرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك ، ولكنه يشير أحياناً إلى سنن طبيعية ترجع إلى هذه العلوم . وبما أنه صادر من واضع السنن كلها ، كان جميع ما جاء فيه حقاً لا شبهة فيه ، وإن لم يكن ذلك مدركا وقت نزوله إلا على طريق الاجمال أو التأويل ، لعدم استبحار العلوم إذ ذاك ؛ ولكن مع الترقى فى العلوم قلما كان يعمد إلى تأويله ، وكثر ما وجب أخذه على ظاهره فى ذلك العهد .

فقوله تعالى : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» : هذه الآية لا يمكن أن يكون العرب الأولون قد فهموها إلا من طريق التأويل المؤدى إلى معنى خضوع كل شىء لعظمة الله

حتى الجماد ، مع أن علماء الطبيعة يثبتون الآن حركة دائمة لا تنقطع في ذرات كل شيء لا تراها العين ولا تحس بها سائر المشاعر .

وقوله تعالى : « خلق الانسان من علق » : شبه الحيوان المنوى بالعلق مع أنه لا يرى إلا بالميكروسكوب . والعبرة من هذه الآية لم تظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين حتى اكتشف الميكروسكوب .

كل هذه الآيات الكريمة وكثير مثلها لا يفهم شيئا من معناها الحقيقي إلا من درس العلوم الحديثة ، ومن يفعل ذلك يظهر له إعجاز القرآن بطريقة أقرب إلى إقناعه من فصاحته ، لأنه عالم ببعض العلوم وجاهل بالفصاحة .

وهكذا يؤمن بالقرآن من لم يؤمن به ، ويزداد إيمان المؤمنين .

ويجب أن أنبه إلى نقطة هامة ، وهي أن العلوم مهما تقدمت فهي عرضة للزلل ؛ فينبغي أن لا يطبق على الآيات الكريمة إلا ما يكون قد ثبت ثبوتاً قطعياً ولم يقبل الشك ؛ فكثير من النظريات العلمية عرضة للتغيير والتبديل ، وهذه لا يجوز تطبيقها على الآيات حتى ولو اتفقت مع ظاهرها ، إنما يطبق منها ما يكون قد اجتاز دور النظريات وصار حقيقة ثابتة لا شك فيها ، فرقم ٥ × ٥ = ٢٥ لا يمكن أن يكون غير ذلك مهما تقدمت العلوم ، وكذلك كثير من نظريات الطبيعة والهندسة ، وقليل من الطب . أما النظريات الكثيرة مثل نظرية الذرات والجاذبية والنسبية

ومذهب داروين وأغلب نظريات الفلك ، فلم تتعد طور النظريات ، وقد تتغير وتتبدل .

وكما يقول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى : « يجب أن لانجر الآية إلى العلوم كي تفسرها ، ولا العلوم إلى الآية ، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها » .

إن العالم كثير الاغترار بعلمه ، فاذا لم يتفق ظاهر الآية وما يعرفه من النظريات ركن إلى علمه وشك فى الآية أو أولها ، مع أن كل علوم العصر الحاضر لاتعد شيئاً مذكوراً بالنسبة لحقائق الأشياء ، فقد انتفع الانسان بالكهرباء والحرارة والضوء ، ولكنه لايعرف شيئاً عن حقائقها ، فهو يعرف كثيراً عن سننها ، وسيزداد معرفة بها بتقدم العلوم ، ولكنه لايعرف عن كنهها أكثر مما يعرف عن الروح والحياة ونظام الكون .

فكل آية كريمة لا تتفق ونظريات العلوم يجب أن تترك حتى تتقدم هذه العلوم ، فخلق آدم من طين مثلا لا يتفق ومذاهب داروين وغيره ، ولكن الأخيرة قائمة على نظريات ، وهى كما قدمنا عرضة للتغيير . ولم أعثر للآن على آية واحدة لا تتفق وأية حقيقة علمية

ولمعرفة مقدار الخطأ والبعد عن الحقيقة الذى تتعرض له النظريات ، أضرب مثلا بسيطاً لذلك :

إذا جلس شخص عاش منذ مائة سنة لايعرف شيئا عن الراديو أو التليفون فى غرفة فيها آلة تليفون متصلة بمحطة إذاعة للراديو ،

وبالغرفة المجاورة آلة راديو ، حتى إذا تكلم الشخص سمع صوتاً يجيبه فى الغرفة المجاورة ، فلاشك أنه يجزم بأن هناك إنساناً عاقلا يتكلم ، وقد يجهد عقله ويعمل فى ذلك تجارب كثيرة ؛ وبما أن ذلك المتكلم يحكى له كل كلام يوجهه إليه ، فلا يبقى فى ذهنه أى شك فى أن الغرفة المجاورة فيها إنسان . ومصدر الخطأ أن الوسيلة للتأكد من وجود إنسان فى الغرفة المجاورة لا تنحصر فى حاسة السمع وحدها ، ولكن للنظر واللمس نصيب منها ؛ وبما أن كل التجارب التى قام بها الشخص توجب عليه اعتقاد وجود شخص بالغرفة على حسب معلوماته القاصرة ، فالنظرية التى بنى عليها ذلك الحكم بعيدة عن الحقيقة إلا اتصال الغرفة بانسان ، مع أن الفرق بين وجود إنسان بالغرفة المجاورة و بين شىء متصل بانسان ربما كان فى لندن ، فرق كبير جداً .

ولا يمكن اتقاء مثل هذا الخطأ ، لأن الشخص لا يعرف واسطة اتصال مثل التليفون والراديو قبل وجودهما . كذلك أغلب نظريات علم الفلك وغيره ، فقد تقدم علم الفلك حتى صدقت تنبؤات العلماء بعد مئات السنين وبدقة مدهشة ؛ وقد أقاموا على تجاربهم نظريات ، ولما اجتهدوا فى التجارب جاءت النتيجة محققة لما كانوا يتوقعونه فى أكثر الحالات ، ولكن كما أن الشخص الذى كان يحاول معرفة مصدر الصوت كانت تجاربه تأتى صادقة كما لو كان هناك إنسان فى الغرفة المجاورة ، كذلك كانت تجارب العلماء فى كثير من النظريات تأتى مصدقة لما كانوا يتصورون ، وقد تكون خطأ فى

أساسها ، ولكن فيها اتصال بعيد بالحقيقة بعد الشخص الموجود في لندن عن الغرفة المجاورة .

وبالاختصار فالطريقة الوحيـــدة للتثبت من وجود شيء ، ليست هي الاستنتاج العقلي ، ولكن استعمال كل الحواس المجردة وغير المجردة ، ومع ذلك فتكون النظريات عرضة للزلل ، لأن مدارك الانسان محدودة ، وهو لا يتصور ما غاب عنه .

يتضح مما سبق أن هناك آيات كثيرة لم تتقدم العلوم لتفسيرها للآن ، ولم أحاول أنا ذلك ، فقوله تعالى : « فانظروا كيف بدأ الخلق » لم تتقدم العلوم لمعرفة تفصيلات معانيها . وقد حاولت أن أفسر بعض الآيات المتعلقة بعلوم النفس أيضا ، لأن ذلك من اختصاص الطبيب ، وكل ما أرجوه أن يقتدى بي إخواني الاخصائيون في العلوم الأخرى ؛ على شرط أن يلاحظوا القواعد التي أسلفتها ، وأن لا يفسروا من الآيات إلا ما يتفق والحقائق الثابتة .

بالمناقشة مع إخواني وجدت أن هناك سؤالين يجب الاجابة عليهما قبل البدء بالتفسير لعلاقتهما المباشرة به :

(أولهما) ما الغرض من خلق هذا الكون ، وما حكمة وجودنا ؟

إن طبيعة عقل الانسان أن يسأل عن حكمة وجود كل شيء ولا يستثنى من ذلك الكون كله ، مع أن مادة العقل التي يريد بها أن يكشف

الكون هي جزء من هذا الكون نفسه ، وتلعب دوراً فيه ، واللاعب لا يمكنه أن يمثل دور المتفرج .

ولنضرب مثلا :

شخص من أواسط أفريقيا حضر ليمثل دوراً بسيطاً جداً فى رواية ذات فصول عديدة فى لندره ، وهو لا يعرف شيئا عن اللغة ولا عن الرواية ، ولكنه يمثل دوره المطلوب منه ، فان كان ذكيا فقد يفهم معنى الأشـــياء المادية التى تشترك معه فى دوره ، فيعلم معنى صور الجبال والأودية والحيوانات الخ ، ولكنه من المستحيل أن يفهم معنى الرواية ، لأنه يمثل دوراً لا يعد شيئا مذكوراً فيها ، وهو جاهل باللغة التى كتبت بها ، وغائب عن المسرح أغلب الوقت ؛ كذلك الإنسان مهما ارتقى عقله ، فقد يعرف كثيراً من السنن الطبيعية المتعلقة بالمـــادة ، ويعرف أشياء عن الكواكب الخ ؛ ولكنه لا يعرف لغة هذا الكون وسننه غير المادية ؛ ولذا لا يمكنه أن يفهم شيئا عن الوجود الذى هو جزء صغير منه ، ومدة حياته لا تبلغ جزءاً من مئات الملايين من عمر الكون ، وكل مايمكن الانسان أن يظفر به هو أن يعرف المهمة التى يقوم بها فيه ، وأن يتقنها ؛ وهذه المهمة قد علمها الله لنا بقوله : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » .

وأما حكمة وجود الكون وعظمته فلم نعط الحواس اللازمة لمعرفتها ؛ وما أسعد الشخص الذى يؤدى ماندب إليه ! ولعمرى إن

ذلك يستغرق كل قواه العقلية والمادية ، ولا يترك له أى بقية يشتغل بها فى أشياء أخرى «كل ميسر لما خلق له » « وخلق كل شىء تقديرا » ويقول الطبيعيون : « الطبيعة لا تسرف » .

(ثانيهما) ما معنى القضاء والقـدر مع أن اختيارنا ظاهر ، وما معنى مجازاتنا على ما نفعله إذا كان هناك قضاء وقدر ؟

إن علماء الطب يمكنهم أن يعرفوا سير الأمراض ومدتها الخ بمعرفتهم بعض السنن الطبيعية ، فان أخطأوا فلنقص فى علمهم ؛ كذلك المهندس عند ما يشـيد جسراً يعرف مقدار السنين التى يمكثها إذا عرف مقدار الضغط عليـه يوميا والعوامل الطبيعية الأخرى .

فالمبدع الأول خلق الانسـان من طين ، وعلم ما يدخل فى تركيبه ، وسن له سنة التناسل ، وخلق له الأحوال المحيطة به ، ووضع لها سننا ، وقدر تأثيرها عليه ، وهل أفعال الإنسـان فى الحقيقة إلا خضوع منه لهذه الأحوال والسنن وإن توهم أن له اختيارا فيها ؟ فاذا أتى البرد وكان عنده ملابس ثقيلة ، فانه يلبسها . هـذا العمل ظاهره الاختيار ، ولـكنه عمل مضطر عليـه عند ذى العقل السليم أوجبه البرد .

ولنضرب مثلا آخر :

تاجر مضطر لبيع بضاعته وتعرض عليه قيمتان لها ١٠٠ قرش و ١٥٠ قرشا ، فلاشك أنه يبيع بأكثر القيمتين ويعد عمله اختياريا ،

ولكنه فى الحقيقة اضطرارى ومطابق لسنن لاتتبدل ، وإن لم يفعل ذلك عد مجنونا . وقد تتعقد أفعال الانسان ويضطر أن يفكر كثيراً قبل الاقدام عليها ويعد عمله هذا اختياريا . ولكنه مبنى على سنن مقررة ، ونتيجة لكل اختباراته الماضية ؛ وتركيب مخه والأحوال المحيطة به . ولو علم شخص تفاصيل الأمور لأخبر بما سيستقر عليه الرأى فى كل منها ، كما يعلم الكيماوى نتيجة التفاعل بين مادتين إذا علم تركيبهما .

هذا ما أجمع عليه علماء النفس . وخالق الوجود والسنن كلها عالم بكل ما سيحصل للكائنات فى مستقبل حياتها .

فالعلقة الصغيرة (النطفة) التى يقل قطرها عن عشر المليمتر الواحد ، تمثل ملايين الصفات ، وعلقة القرد مثلا والانسان لايختلفان ظاهراً فى الشكل مع أن كلا منهما تمثل كل الصفات التى تميز الواحد عن الآخر ، وهذه لا حد لها ، كذلك لا تختلف علقة شخص عن شخص آخر ، مع أن الزمن والتغذية كفيلان إذا ما أثرا عليهما أن يصيرا شخصين مختلفين تماما ، وذلك طبقا لسنن ثابتة لا حصر لها ، فالفروق المتنوعة التى تملأ مجلدات قد اختزلت فى حجم النطفة .

فالله جلت قدرته وقت بدء الخلق كان يعلم كل ماسيحدث للانسان وغيره من الكائنات ، فان مستقبل الكون مقدر منذ الأزل ، ونحن على مقتضى عقولنا نفرق بين الحاضر والمستقبل ، والله

وقت خلق النطفة أراد إيجاد الانسان الكامل لا الناقص ؛ ولكنا لضعف إدراكنا لا نعرف ذلك ، فنقف عند الحاضر . أما المبدع الحكيم فيعرف مستقبله كله جملة وتفصيلا . فالانسان فى قصر نظره كالمتفرج على (السينما) يرى المنظر الحاضر ويجهل ما بعده ، على حين أن المناظر المستقبلة موجودة ومعلومة لصاحب السينما ، ولكنها غيب بالنسبة للمتفرجين ؛ فالخالق، وله المثل الأعلى: قد قدر منذ الأزل كل ما سيحدث فى الخليقة ، وهذه التقادير تتولى إبرازها السنن التى سلطها الله عليها منذ وجودها ، ولا يتم هذا الابراز بدون حوادث شتى تعترى الانسان وغيره من الكائنات قد تعتبر مصائب. وهذا معنى قوله تعالى: «ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير». هذا هو معنى القضاء والقدر ، ولا معنى له غير ذلك فى رأينا .

قد يقال: وما الفائدة من عقولنا وتفكيرنا أمام هذا القضاء والقدر؟

الجواب: أن تفكيرنا هو هذا الجزء الاختيارى الذى ميز الله الانسان به عن سائر المخلوقات وجعله أساسا للجزاء ، وقد يكون هو المقصود من الآية الكريمة : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا » والله أعلم ، ولكن هذا التفكير لا تأثير له فى سير القضاء والقدر ، فالانسان حر فى أن يفكر كما يشاء ، ولكن لا يمكنه أن يأتى أفعالا لم تقدر عليه « وما تشاءون إلا أن يشاء الله».

والسؤال الثانى وهو : لم نجازى على ما قدر لنا ؟

الجواب : أننا نجازى على ما يقع عليه اختيارنا ، سواء أتم أم لم يتم ، وسأضرب لذلك ثلاثة أمثلة :

(أولها) شخص يريد القتل ويفكر فيه ويترقب الفرص لتنفيذه ، حتى إذا سنحت له ارتكب الجريمة ، فهذا لاشك مجرم بتفكيره أى بجزئه الاختيارى ، وقد أنفذ جريمته لأن القدر وافق ما عزم عليه .

و (ثانيها) شخص يخاف ربه ويطيع أوامره ، ولكن حدث له أن وقع مرة تحت تأثير انفعالات نفسانية شديدة أضاع معها رشده فارتكب جريمة القتل ، فلما ثاب إليه رشده ندم على فعلته ، فهذا الرجل ارتكب الجريمة بجوارحه فقط ، ولكنه لم يقتل بضميره ، فقد ثبت طبياً الآن أن الانفعالات الشديدة تحدث زيادة إفرازات فى بعض الغدد الصماء تؤثر على الضغط الدموى وعلى المخ ، وقد تحدث تشنجاً عصبياً أو شللا وقتياً فى قوة الادراك (غيبوبة) يأتى الشخص فى أثنائها من الأفعال ما يستنكره فى حالته العادية ، والخالق يعلم حالته ، ويعلم أنه قتل لأن القتل كتب عليه ولا مفر له من ذلك ، ولكنه لم يقتل بضميره .

و (ثالثها) شخص عاص لربه ينتهز الفرصة للقتل ، ولكن الفرصة لا تسنح له ، فهو مجرم بضميره ولو أنه لم يقتل ظاهرا ؛ والحقيقة أنه لم يقتل لأن القتل لم يقدر عليه ؛ ومن لم يقدر عليه

القتل فلا يمكن أن يقتل مهما حاول ذلك ، والله يعاقبه بما يشاء على نيته « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ؛ فقد يغفر لصاحب الذنب الواقع ويعذب من لا ذنب له فى الظاهر ، والله يعلم ما يحول بين المرء وقلبه « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وإذا أيقنا أن عجلة القضاء تسير سيرها رغم إرادتنا ، اطمأنت قلوبنا ، وعلمنا السر فى أن المتقين قد يصابون كما يصاب غير المتقين ، ولكن الفرق أن تفكيرهم وصبرهم يحول مصائبهم إلى نعم فى نظرهم « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (أى امتحانا) « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » .

الخلاصة : أن الخالق الذى يقول : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » والذى يعلم السر فى السموات والأرض ، لا يظلم أحداً ، فلتطمئن قلوبنا ، ولنثق بعدله ، ولنكتف بأن نستعين باحدى السنن غير المادية وهى الدعاء ، تالين قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

وبعد : فانى فى هذا المقام أعترف بفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، لأنه أول من شجعنى على نشر هذه المقالات ، وكان يستمر فى التشجيع كلما ظهر شىء منها ، ويمدنى

بأفكاره القيمة التي كنت أقدرها كما يقدرها الناس كافة كل التقدير .
وكذلك أشكر صاحب العزة الأستاذ فريد بك وجدى لتشجيعه وتصحيحه الكتابات والآيات ، ولو أنه معروف للكل أنه خلق للعلم وحده ، ونعم عمل العاملين .؟

الحياة تحت ضوء القرآن

« وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم »
(سورة البقرة الآية ٢١)

الماء ضرورى لاستمرار الحياة والنمو ، فالانسان لايمكنه أن يعيش بدون شرب الماء بضعة أيام مع أنه يعيش على الما فقط مدة شهر أو أكثر ، والنباتات والجراثيم وكل شىء حى يهلك من الجفاف ويحيا بالماء

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرجْ لنا مما تنبت الأرض من بَقْلها وقِثّائها وفُومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير . . . » الآية ٦٠

هذه الآية الكريمة معناها — والله أعلم — أن اللحوم والأسماك والألبان الخ أفضل فى التغذية من البقول والقمح والذرة ، وليست الأفضلية فى مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم فى كل نوع ، لأن هذا يجب ألا يكون سببا مهما للأفضلية . فمثلا المواد الزلالية فى اللحوم من ١٥ الى ٢٠ فى المائة ، وفى

اللبن ٤ فى المائة ، وليس هذا معنى الأفضلية ، لأن معناها أن اللبن غذاء مخفف وبتركيزه يصير مثل اللحوم ، وكذلك اللحوم باضافة ماء عليها تصير مخففة مثل اللبن . ولكن الأفضلية هى فى نوع المواد الزلالية فى كميتها ، وأن كل جرام من المواد الزلالية فى اللحوم أفضل من جرام من المواد الزلالية (Proteins) فى القمح والذرة الخ

وقد اهتدت أخيرا لجنة الأبحاث بانجلترا Medical Research Committee الى أن قيمة المواد الزلالية تختلف فى نوعها وفى المقدار منها الذى يمنع المواد الزلالية المكونة الأنسجة من أن تحترق . وبعد أبحاث كثيرة ظهرت لها فوائد عملية فى بعض أمراض مثل البلاجرا ، ورأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلالية ونوعها لها قيمة أكثر من اللبن والذرة ، مثل البيان الآتى :

لحوم	لبن البقر	أرز	بطاطس
١٠٤	١٠٠	٨٨	٧٩
فول	دقيق	ذرة	
٧٠	٤٠	٣٠	

إن هذه النتيجة التى لخصها القرآن الشريف لم تظهر حقيقة

ثابتة طبيا الا منذ سنوات قليلة . وكانت النظرية السائدة قبل ذلك أن الأطعمة وقيمتها بالنسبة للمواد الزلالية هى مسألة كمية لا مسألة نوع

وقد ظهر من أبحاث لجنة الابحاث الملكية بانجلترا فى التقرير الثالث سنة ١٩٣٣ والأخير ، أن البقول (Cereals) يضر الاكثار منها بالأسنان ونموها ، حتى إن التقرير ينصح بعدم إعطائها مطلقا للأطفال ، وبالقلة منها للكبار ، ويقول إن الاكثار من البقول من أهم العوامل فى تسويس الأسنان

« وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة » الآية ١٦٣

الروح مهما كانت حقيقتها هى هبة من عند الله ، ولكنها لا يظهر تأثيرها الا فى نوع مخصوص من المادة ، وهذا النوع من المادة يختص بأن يكون فى حركة دائمة من التحويل (Metabolism) وهذا التغيير الكيمائى الدائم فى كل خلايا الانسان وكل دابة لا يمكن عمليا الا اذا كان فيه ماء بمقدار يختلف حسب نوع الخلايا ، وهناك بعض أجزاء من الجسم الحى يقل فيها الماء جدا ، وهذه أغلبها افرازات متجمدة ليس فيها حياة مثل الأظافر ، وأعنى أنها ميتة ، وهذا أيضا معنى الآية

الكريمة « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، فليس المراد أن الماء سبب الحياة مطلقا ، ولكنه شرط أساسي في المادة التي تظهر فيها الحياة ، وهناك فرق بين الاثنين . ومثل ذلك مثل المسرة (التلفون) فاذا كان اثنان يتكلمان على مسافة طويلة فالسبب في الصوت الذي يسمع هو المتكلم من الناحية الأ . رى ، ولكن عدة المسرة شرط أساسي لسماع الكلام ، حتى إذا طرأ عليها طارئ لايمكن سماع أي شيء ، كذلك الماء شرط أساسي لاستمرار الحياة في الجسم ، ولكن الحياة والروح هما مثل المتكلم شيء آخر مطلقا لا تعرف حقيقته ، ولكن تغيير المادة بفقد عنصر أساسي مثل الماء ، الذي يؤدي الى الموت بالنسبة الى الجسم المادي ، يمنع وجود الروح والحياة ، وقلة الماء فيه تؤدي الى عدم وجود الروح والحياة ، أي الموت بالنسبة الى الجسم المادي

« يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حَرَّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله » الآية ١٧١

هذه الآية الكريمة تنص على ألا تؤكل الميتة ولا الدم ،

فالحيوان الميت لايموت إلا لسبب : مثل المرض أوالشيخوخة، فان كان لمرض فما لا شك فيه أنه لا يزال فى الجسم نتيجة التسمم من مواد غير طبيعية وضارة للانسان حتى بعد أن يعقم من الجراثيم بطريق النار ، فالجسم الميت فى هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمر الذى مهما طهر من الجراثيم بالحرارة لايزال مضرا بالانسان ، وربما أدى الأكل منه الى الوفاة .

وكذلك الدم ، فانه نسيج أغلبه وأهم عنصر فيه وهو الكرات الحمر خلايا حية ، وفيه من افرازات الجسم ماهو معد للافراز بواسطة البول والعرق الخ . فالدم فى الحقيقة مزيج من مواد قليلة مفيدة للجسم . ولكن أغلبه مواد مضرة ويجب أن تفرز ، واذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم مريضا كان أكل الدم أشد ضررا ، وكان بقاؤه فى أنسجة الحيوان قبل أكله مضرا جدا لما فيه من مواد مضرة تحدث تخمرا بسرعة فى أنسجة الحيوان مثل العضلات ، فيكون لحمه غير صالح للأكل .

وأما اذا كانت الميتة بالشيخوخة فضررها كضرر الميتة بالمرض ، لأن الشيخوخة معناها انحلال أحد الأنسجة قبل الأنسجة الأخرى ، فتؤدى الى انحلال الكل . وانحلال أحد

الأنسجة لا يأتى إلا لضعف طبيعى فيها ، أو بمرض تدريجى غير منظور يحدث تغييرات فى لحوم الحيوان تقلل من قيمتها الغذائية وقابليتها للهضم .

ورب قائل يقول : إن الميتة تؤكل يوميا فى البلاد الباردة مثلا، وكذلك الدم ولحوم الحيوانات تؤكل بدون ذبحها وتصفية دمها بدون ضرر ظاهر . والجواب على ذلك أن ضرر التخمر يقل كثيرا فى الأقاليم الباردة ويزيد فى الأقاليم الحارة ، والدين الاسلامى أنزل للعالم كله بما فيه الأقاليم الحارة التى يحدث التخمر فيها بسرعة مدهشة . إذاً فمما لاشك فيه طبيا أن لحم الحيوان السليم الذى يذبح ويصفى دمه أحسن غذاء وليس فيه أقل ضرر ، بخلاف الحيوان المريض الميت المتخللة لحومه بالدم

لحم الخنزير : اذا كان سليماً من الأمراض لاضرر منه على ما نعلم للآن ، ولكن كثيرا ما يصاب بأمراض تضر الانسان اذا أكله ، فضرره أكثر من نفعه

فمثلا نحو خمسة فى المائة من الخنازير فى بعض جهات أمريكا مصاب بمرض (تركيتا) وهو نوع من الديدان خطر ، لأنه اذا أصيب به الانسان يحدث به تسمما عموميا وإسهالا

مثل (الكولرا) وقد يؤدى الى الوفاة . وأهم من ذلك أن لحم الخنزير المصاب لا يمكن تطهيره من هذا المرض بسهولة، فعملية السلق البسيطة أو الشى لا تكفى ، ويجب غلى اللحوم مدة لا تقل عن نصف ساعة على الأقل لتطهيرها . واذا كانت الاصابة شديدة كانت اللحوم غير صالحة للتغذية حتى بعد تطهيرها ، لأن الحيوان يكون فى حالة تسمم عمومى قبل الوفاة

وهنا كانت حكمة الدين الاسلامى فى اجتناب الضرر الذى لا يمكن الوقاية منه الا بطرق ليست سهلة التناول ، وأحسن الوقاية العملية هى الامتناع عن أكله

ولهذا لم تشاهد من هذا المرض حالة بين المسلمين ، مع أنه ليس نادراً فى أوربا وأمريكا .

ثم إن الخنزير سبب عدوى ديدان أخرى أقل ضررا مثل (الاسكاريس) وأنواع من (التينيا) .

اسرار الصيام الطبية

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » الآية ١٨٣

من الناس من يتوهم أن فى صيام رمضان، وهو من أركان الاسلام، مضرة تلحق بالصائم. لما يصيب الجهاز الهضمى خاصة وغيره عامة، ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب. وهذا خطأ، لأن ما ذهبوا اليه ليس من الصيام فى شىء، ولكنه من ترك الاعتدال فى طعام الافطار والسحور، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله وقت الافطار، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقيمات لأنه لا ضرر من الجوع فى حد ذاته.

وبما أن الصيام يستعمل طبيا فى حالات كثيرة، ووقاية من حالات أكثر، وأن كثيرا من الأوامر الدينية لم تظهر حكمتها، وستظهر مع تقدم العلوم — رأيت من الواجب علىّ أن أكتب عما ظهر طبيا للآن من فوائد هذه الأوامر،

وإيضاح آيات قرءانية لأبيّن معناها الذى لا يظهر إلا لمن بحث عنها فى نور الطب الحديث ، وسأبدأ بالصيام .

فوائد الصيام :

للصيام فوائد فى ثلاث جهات : (أولها) وأهمها الجهة الروحية ، وهذه أتركها لعلماء الدين والمتصوفة منهم . و (ثانيها) الجهة الأخلاقية ، وهذه أتركها لعلماء الأخلاق ، ومن السهل البرهنة على أن الصيام يعوّد الانسان النظام والقناعة ، وطاعة الرؤساء ، والصبر وكبح شهوات النفس ، وحب الخير والصدقة ، وغير ذلك من الفضائل . و (ثالثها) وأقلها أهمية : الجهة المادية أو الصحية ، وهى محل بحثنا :

لقد ظهر أن الصيام يفيد فى حالات كثيرة ، وهو العلاج الوحيد فى أحوال أخرى ، وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض كثيرة .

فللعلاج يستعمل فى :

١ — اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر فى المواد الزلالية والنشوية . وهنا ينجح الصيام وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما فى صيام رمضان . ويمكن أخذ الغذاء

المناسب حسب حالة التخمر. وهذه الطريقة هى أنجع طريقة لتطهير الأمعاء.

٢ — زيادة الوزن الناشىء من كثرة الغذاء وقلة الحركة، فالصيام هنا أنجع من كل علاج، مع الاعتدال وقت الافطار فى الطعام، والاكتفاء بالماء فى السحور.

٣ — زيادة الضغط الذاتى، وهو آخذ فى الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية، ففى هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة. خصوصا اذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعى لمثله.

٤ — البول السكرى، وهو منتشر انتشار الضغط، ويكون فى مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوبا غالبا بزيادة فى الوزن، فهنا يكون الصيام علاجا نافعا، اذ أن السكر يهبط مع قلة السمن، ويهبط السكر فى الدم بعد الأكل بخمس ساعات الى أقل من الحد الطبيعى فى حالات البول السكرى الخفيف، وبعد عشر ساعات الى أقل من الحد الطبيعى بكثير، ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات فى الغذاء أهم علاج فى هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين، خصوصا اذا كان

الشخص يزيد عن الوزن الطبيعى . ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ — التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ — أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ — التهاب المفاصل المزمنة . خصوصا اذا كانت مصحوبة بسمن ، كما يحصل عند السيدات غالبا بعد سن الأربعين . وقد شوهدت حالات تتمشى فى شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

ورب سائل يقول : ولكن الصيام فى كل هذه الحالات يحتاج الى ارشاد طبيب فى كل مرض على حدته ، والصيام الذى كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . وهذا صحيح ، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هى الوقاية من هذه الأمراض ، وخصوصا الأمراض التى مر ذكرها تحت أرقام ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٧ .

وهذه الامراض كلها تبتدىء فى الانسان تدريجاً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد الى الحد

الذى يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها . ولكن من المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هـــذه الأمراض هى فى الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جدا قبل ظهور أعراض المرض بوضوح . وقد ظهر باحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكرى ، وزيادة ضغط الدم الذاتى ، والتهاب المفاصل المزمن ، وغير ذلك . ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها . وهذا هو السر فى أن شركات التأمين لا تقبل تأمينا على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تثقل كلما زاد الوزن. والصيام مدة شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض .

وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف ، فقد انتشرت فى أوربا أكثر من الأول . وفى مصر يكاد يكون البول السكرى وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا ، وقليلا جدا فى الفقراء .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر فى أن الصيام فى الاسلام أشد منه فى الأديان السابقة ، لأن الاسلام ، وهو آخر الشرائع السماوية ، جاء فى زمن نحتاج فيه إلى وقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف .

الخمر واضرارها

« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » الآية ٢١٨

الخمر أساسها مادة الكحول (الكثول) بكميات مختلفة ، وهذه المادة توجد بنسبة خفيفة فى جسم الانسان فى عملية هضم المواد السكرية (الجلوكوز) مثل الموجود فى العسل ، ولها فوائدها طبيا ولكن يظهر أن هذه الفوائد مقصورة على هذا القدر البسيط جداً ، فان زاد عن ذلك أحدث ضررا ، خصوصا إذا كان التعاطى لمدة طويلة فانه يحدث التهابا مزمنا فى الأعصاب وفى الكلى ، وتصلبا فى الشرايين ، وتحجرا فى الكبد ، وضعفا فى القلب .

ورب سائل يقول : لم لا يؤخذ منه مقدار بسيط ؟ والجواب أن الكحول (الكثول) يختلف عن أغلب المواد

فى أنه حتى بالمقادير البسيطة يحدث ضعفا فى قوة الارادة والحكم ، وتزداد به الانفعالات النفسانية ، وهذا هو الخطر ، لأن الشخص يصبح شخصا آخر ، وإرادته تصبح غير إرادته الطبيعية . ومع علمه بضرر الزيادة فى حالته الاعتيادية لا يقوى على منع نفسه وهو تحت تأثير البسيط منه ، وقد يُحدث الشيء البسيط منه حركةَ انتعاش . ولكن ضعف الارادة يجعل الشخص عبدا لعادة شرب الخمر . وقد وصفها كاتب من أكبر الكتاب الانجليز فى كتابه ، وكان يتعاطى الخمر ، فقال : « إنى لا أحس أنى فى شعورى وإدراكى إلا إذا كنت متأثرا بالخمر ، ولكنى فى هذا الوقت وأنا سكران لا أعرف نفسى الأولى» فكأنه فى الحقيقة أضاع نفسه ، لأن عادة الخمر كانت شديدة عنده ، حتى إنه فى الأوقات التى لا يشرب فيها يشعر بكآبة وبؤس ولا يحس نفسه سعيدا ، وكأن شيئا مهمًا ينقصه حتى إذا شرب شعر بالسعادة . ولكنه فى هذه الحالة ليس طبيعيا بل هو سكران . وقد مات فى شبابه بالسل مع أنه لو عاش لم يبعد أن يكون أكبر شاعر .

وهنا يلاحظ أن الخمر ، حتى قليلها ، لا يزيد قوة التفكير العميق بل يضعفها . وأما الملكات الأخرى مثل الموسيقا

والشعر فربما ظهرت بوضوح من قليل من الخمر . وهذا معنى قوله تعالى : « وإثمهما أكبر من نفعهما »

أما تأثير الخمر من الوجهة الأخلاقية والاقتصادية فليس محل بحثنا .

افرازات الجسم

« ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » الآية ٢٢٢

إفرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة فى الجسم مثل الهضم أو التناسل ، أو إفرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم وأنسجته الخ . وهذا النوع يسمى (Secretion) وهو ضرورى للحياة وليس فيه ضرر .

ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب افرازه من الجسم إلى الخارج ، وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت فى الجسم أضرت به ، وذلك مثل البول والبراز والعرق والحيض ، وهذا النوع يسمى (èxcretion) .

فهذه الآية الكريمة علمت الانسان قبل أن يعرف شيئاً عن أنواع الافرازات أن المحيض أذى وأنه لا يفيد الجسم .

وأما الجزء الثانى من الآية الكريمة « فاعتزلوا النساء فى المحيض » فسببه أن الأعضاء التناسلية تكون فى حالة احتقان ،

والأعصاب تكون فى حالة اضطراب ، بسبب افرازات الغدد الداخلية ، فالاختلاط الجنسي يضرها ، وربما منع نزول الحيض كما يحصل كثيرا من الاضطراب العصبى ، وقد يكون سببا فى التهاب الأعضاء التناسلية .

وهذا هو السبب فى أن الطبيب الاخصائى لا يكشف على مرضاه من النساء وقت المحيض .

ميعاد ظهور الحمل :

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » الآية ٢٢٨

معنى الآية صريح ، وهو أنه فى مدة ثلاثة أشهر تكون علامات الحمل قد ظهرت : من عدم وجود الطمث ، ومن الاضطرابات المعدية ، ومن كبر فى الجزء الأسفل من البطن . وميعاد ثلاثة أشهر هو ميعاد موضوع بحكمة فائقة ، لأنه قبل ذلك بشهر يصعب جدا التثبت من الحمل حتى بواسطة الأطباء الاخصـــائيين بل الكيميائيين ، وبعد هذا التاريخ تكون أعراض الحمل ظاهرة للشخص العادى . نعم قد توجد حالات يصعب الجزم فيها بالحمل أو عدمه حتى بعد مضى أربعة أشهر أو خمسة أو أكثر من ذلك خصوصا عند العوام ، ولكن هذه

الأحوال نادرة ، حتى إنهـا لا يجوز أن تكون محل تشريع خاص . وقد رأيت حالات فى الشهر التاسع اشـــتبه فيها الاخصائيون ولم تتبين بسهولة بالأشعة ، فهذه النوادر لا تدخل تحت الأحكام العامة .

لبن الأم ومدة الرضاعة :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » الآية ٢٣٣

مما لا شك فيه طبياً أن لبن الأم أصح غذاء من كل أنواع اللبن الصناعى ومن اللبن العادى مهما عدل حتى يقرب من لبن الأم . وفائدة الرضاعة للأم مهمة ، لأن اللبن بالنسبة للأم إفراز لمواد بعضها يتزايد مدة الحمل لهذا الغرض . والرضاعة نفسها مفيدة للأعضاء التناسلية ، وتقلل من الاستعداد للحمل مدة الرضاعة عند البعض ، وهذا يمنع الحمل المبادر الذى ينهك القوى .

وأما مدة الرضاعة فهى موضوع فيه آراء كثيرة . ويجب أن نلاحظ صحة المولود ، وصحة الوالدة ، والظروف المحيطة بهما . ومما لا شك فيه أن مدة سنتين هى أقصى مدة للرضاعة ،

أى بعد ذلك يجب أن يغذى الطفل بغـذاء آخر زيادة عن اللبن .

وقد تغيرت النظريات الطبية فى هذه المدة ، فقد كان الأطباء ينصحون بالرضاعة مدة تسعة أشهر فقط ، وأحيانا سنتين ، ولـكن آخر تقرير فى سنة ١٩٣٣ عن فائدة الرضاعة الطبيعية للجسم والاسنان يقول : إن المدة يجب أن تـكون فوق السنة ، ويستحسن أن تـكون سنتين كاملتين .

النوم وضرورته للحياة

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم...الخ »
الآية ٢٥٥

هذا أبلغ وصف فى الاختلاف بين الذات الالهية وبين الانسان ، فبعد أن وصف الاله بأنه حى ، وصفه بأن صفة الحياة فيه تختلف اختلافا كليا عن حياة الحيوانات ، لأن كل شيء يحتاج إلى النوم والاله لا ينام أبدا . ولم يتقدم الطب فى معرفة كنه النوم وأسبابه كلها ، ولكن آخر الأبحاث يضع النوم صفة أساسية للأنسجة التى فيها الحياة ، فالتغييرات التى تحدث فى الأنسجة وقت الحركة هى سبب الاستراحة والنوم . وبالنوم تستعيد الأنسجة سيرتها الأولى كما كانت ، وهكذا . فالنوم ضرورى للحياة ، كما أن الحياة والحركة ضروريتان للنوم . وبالاختصار إن النوم أشبه شيء بالموت ، إلا أنه موت وقتى ، فكأن الله تعالى يقول : إنه حى باق لا يموت ، والا فلو جاز عليه النوم لجاز عليه الموت ، لأنه لا حياة بدون نوم .

واذا علمنا أن ما كتب عن النوم وعن أسبابه فى الألفين من السنين الأخيرة يملأ مجلدات كثيرة حتى إن بعض الفلاسفة والأطباء فى أوقات مختلفة كتبوا عن إرشادات لمنع النوم لأنه مضيعة للوقت ولا فائدة منه — ظهرت لنا حكمة الله ، وظهر لنا أن القرآن لا يأتيه الباطل أبدا ، لأنه وضع النوم شرطا أساسيا لكل حى . وقد اتجهت الأفكار أخيرا ، وجميع المشاهدات العلمية تؤكدها ، الى أن النوم ناشىء من تغييرات كيميائية تحدث من الحركة فى الأنسجة ، فاذا استمرت هذه التغييرات ومنع النوم بالقوة أدت الى الموت .

أما اذا تركت وشأنها فانها تؤدى الى النوم الذى يعيد التغييرات الكيميائية الى ما كانت عليه قبل الحركة . وهكذا تستمر الحالة بين الحياة نهارا والموت الوقتى ليلا .

* *

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحي هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام ، فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر الى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير .

وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصُرْهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » الآية ٢٥٩ .

من غرائب النوم أن الانسان إذا نام وصحا من نومه لا يمكنه أن يعرف مقدار النوم أكان مدة قصيرة أم آجالا طويلة ، وعليه أن يعتمد على ما يقوله الناس له . وهذا معنى قوله تعالى : «فلما تبين له» لأنه بعد أن نام مائة عام لم يعرف الزمن الذى مر عليه إلا بالفحص وبسؤال الناس الذين حوله . ونوم الانسان مائة عام معجزة ككل المعجزات التى من صنع الله ، وهى كخلق كل المخلوقات . وسأشرح ذلك فى تفسير آيات أخرى . والله لطيف بعباده يختار من طرق الشرح لعبيده ما يتناسب مع عقولهم . وهذا هو أيضا معنى قسمة الطير التى أمر بها إبراهيم عليه السلام ، لأن إحياء الطير بعد موته لا يقل فى الاعجاز عن خلق آدم أو عن إحياء جميع الموتى . ولكن مخ الانسان لا يستطيع صدمات قوية ، إذ عند وقوعها إما أن ينتحر أو يذهب لبه . ولهذا كانت المعجزات فى شكل سهل التناول ، مع أن أبسطها هو من مميزات القدرة الالهية ، ولا يتسنى للعالم كله أن يأتى به .

اضرار الربا

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله »
الآية ٢٧٨

هذه الآية التى تحرم الربا يترك تفسيرها لعلماء التشريع والاقتصاد ، ولكنى سأتكلم عن نقطة طبية واحدة ، وهى تأثير الانفعالات العصبية التى تحدث عند عدم تمكن المدين من الدفع . وكم شاهدنا حالات أدت إلى ظهور البول السكرى ، وزيادة ضغط الدم والشلل ، وأرق قد يؤدى إلى الجنون ، لأن الاضطراب العصبي فى هذه الظروف يزيد مادة الأدرنالين فى الجسم ، وهذه تؤثر فى الضغط الدموى وإفرازات البانكرياس . هذا إلى أن هذه الانفعالات لا تتفق مع النفس المطمئنة التى يخاطبها الله بقوله : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية » والتى لا تكون إلا حيث يكون الايمان الثابت .

وقد دلتنا الأزمة الأخيرة على أن الدائن لا يقل ضررا عن المدين ، فقد أفلس أناس كثيرون لأن مدينيهم لم يؤدوا ديونهم ، وأكبر المصارف العقارية فى العالم كانت فى خطر الافلاس وما زالت ، لأن الزارعين لم يؤدوا ما عليهم ، فاضطر مساهمو هذه المصارف إلى أن يشاطروا المدينين فى الحالة التى تدهوروا اليها .

وهكذا علمتنا الأزمة أن الدائن والمدين إذا استعملا الربا ، حق عليهما قوله تعالى : « فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

وأما الدائنون من الأفراد الذين يتعاملون بالربا أضعافا مضاعفة ، ويرتهنون أشياء ثابتة لا تنزل قيمتها مثل الذهب ، فضررهم من الوجهة الصحية شديد ، لأن الإثراء السريع يؤثر فى الأعصاب أكثر من المصائب ، وذلك لأن الانسان عند حدوث المصيبة يعالج صدمتها بالأمل فى زوالها أو التعويض عنها ، وهذه حكمة إلهية لاتقاء الصدمات . وأما الانفعالات الناشئة من العلو دفعة واحدة فالانسان غير قادر عادة على اتقائها ، لأنه لا يتصور زوالها ، إذ لو تصور ذلك

لذهبت سعادته وذهب سروره بها . وكثير من الأمراض العصبية غير العضوية ينشأ من مثل هذه الحالات .

أما الكسب الحلال مثل التجارة والزراعة ، فانه يأتى تدريجا . ومهما كان كثيرا فى النهاية فان صاحبه يرقبه من يوم إلى يوم ، ويتوقع الكسب يوما والخسارة يوما آخر . وبهذه الانفعالات الوقتية المتكررة يقوى على احتمال الصدمات النهائية من الكسب والخسارة

اخراج الحى من الميت

واخراج الميت من الحى

« تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » آل عمران الآية ٢٧ .

قيل فى تفسير ذلك : إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، ولكن النطفة هى حيوانات حية ، وكذلك خلق الحيوان من النطفة ، فهو خلق حى من حى ، فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير ، والله أعلم .

فاذا قيل : إن معنى الآية خلق آدم من طين أى خلق حى من ميت ، فهذا صحيح ، ولكنه ليس المقصود من الآية ، والله أعلم ، لأنها تشير إلى أن الخلق شىء عادى يحصل يومياً بدليل ورودها بعد « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » بالتعاقب ، وهذا شىء اعتيادى . فالله يضرب لنا مثلا نشاهده يومياً ودائماً .

والتفسير الحقيق هو « إخراج الحى من الميت » كما يحصل يومياً من أن الحى ينمو بأكل أشياء ميتة ، فالصغير مثلا يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره ، والغذاء شيء ميت ، ولا شك فى أن القدرة على تحويل الشيء الميت الذى يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه ، هو أهم علامة تفصل الجسم الحى من الجسم الميت . وقد كتب علماء الحيوان فقالوا : إن « النعجة » مثلا تتغذى بالنبات ، وتحوله إلى لحمها ، وهذه أهم علامة على أنها حية ، وكذا الطفل يتغذى باللبن الميت ويحوله إلى جسمه الحى .

وأما إخراج الميت من الحى ، فهو الافرازات مثل اللبن (وإن شئت فلحوم الحيوانات أيضاً والنباتات) فان اللبن سائل ليس فيه شيء حى ، بخلاف النطفة فان فيها حيوانات حية ، وهذه تخرج من الحيوان الحى ، وهكذا ينمو الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، والله أعلم بمراده .

الفرق بين المعجزات

والاختراعات العلمية

« ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم : أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله » الآية ٤٩

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » الآية ٥٩

« بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » الآية ١٢٥

لقد وضعت هذه الآيات بعضها مع بعض لأنها من نوع واحد فى إظهار قدرة الله بالنسبة للانسان . وقد اعترض على عمل الطين بشكل الطير ، لأنه لا لزوم لذلك ما دام الله قادراً على إحيائه الخ . والحقيقة أن فى ذلك حكمة عالية ، لأن الانسان خلق محدود الادراك والحواس ، ولا يفهم ولا يرى ولا يسمع إلا ما كان فى متناول إدراكه ، فان رأى شيئاً فوق

طاقته اجتهد فى أن يرده إلى شىء يعرفه ، فان لم يمكن بقى متحيراً ، وإن تكرر ذلك أدى إلى اضطراب فى الأعصاب قد يكون خطراً. وهنا يُلحَظ لطف الله فى أنه لا يظهر قدرته للانسان إلا بطريق التدرج ، وهذا يلاحظ فى كل المعجزات على الاطلاق ، لأن الله تعالى يخلق الطير من الطين ومن غير الطين ، سواء أكان فى شكل الطير أم لم يكن . وكذلك لا داعى للنفخ لأن طريقة الارادة الالهية هى «كن فيكون» . ولكن الله يقرب فهم الارادة بهذه الطريقة ، لأن الطين إذا كان بشكل الطير يشتبه فيه الانسان بالطير الحقيقى ولا يكون هناك فرق بينهما إلا الحياة ، مع أن ذلك كل الفرق ، وبعدها ينفخ فيه .

وعملية النفخ تجعله ينتظر تغييرا كما يحدث فى أشياء كثيرة مثل الكرة إذا نفخ فيها ، وغير ذلك ، فعند وجود الروح فى هذا الهيكل الطينى تكون الصدمة قد انكسرت حدتها بانتظار حدوث شىء مهم ، مع أن كل هذه المقدمات لا دخل لها مطلقا فى وجود الحياة والروح .

وهذا هو بنفسه ما يحدث عند إبراء الأكمه الخ ، لأن ذلك قد يحدث من نفسه أو بواسطة طبيب فى حالات عصبية مخصوصة (غير عضوية) ، ولهذا يشتبه فيها الناظر .

وللمعارضين أن يقولوا إنها ليست معجزة لأننا نراها على أيدى أشخاص كثيرين ، مع أن الفرق بين إبراء الأعمى الذى فقد بصره بفقد العين نهائيا ، وبين إبراء الأعمى المصاب بالهستيريا الخ مثلا ، يشبه الفرق بين الطين الذى فى شكل الطير والطير الحقيق ، ولكن الله تعالى أراد أن يفهم الانسان بذلك قدرته تدريجا ، فالانسان أولا يشك ويقول: ربما كان كل هذا من الأشياء العادية التى ليست فوق قدرة الانسان ، وربما كانت شيئا غير عادى ، ولكن الله يقول بعد ذلك : وأحيي الموتى ، لكى لا يدع مجالا لشك مطلقا .

إننا نجد هذه الطريقة نفسها فى تاريخ سيدنا عيسى عليه السلام ، لأنه خلق من نطفة الأم فقط ، وفى العالم المادى لا يمكن أن يخلق الحيوان إلا من نطفتى الأب والأم .

ولكن الطريقة التى ولد بها سيدنا عيسى كانت بحيث لا تكون صدمة لعقول المعاصرين ، فقد اتهم هؤلاء السيدة مريم مدة من الزمن ، لأنهم بطبيعتهم فسروا ولادته أو اعتبروها كولادة الناس عامة ، ولكنهم أخذوا يفهمون الحقيقة تدريجيا عند ما اقتنعوا بصحة المعجزات الأخرى التى أتى بها المسيح . وقد وصلوا إلى هذا الفهم على الرغم من

أن عيسى خلق من أم فقط ، ولكن خلقه على هذه الصورة لا يقل عن خلق آدم من طين ، لأن نظام الكائنات يجرى على سنة واحدة لا تتخلف أبدا ، إلا حيث يريد الله ، ومتى أراد الله فلا معنى لطريقة خاصة ، ولا حاجة إلى واسطة إلا بقدر الاقلال من تأثير الصدمة على الانسان كما بينّا .

وهنا يظهر جليا معنى قوله تعالى : « بخمسة آلاف من الملائكة » الآية ، وهى التى طعن فيها أيضا بدعوى أنه مادام الله تعالى يريد نصرتهم فذلك لابد أن يحدث بدون حاجة إلى إرسال ملائكة ، ولكن إرسال هذه المساعدة وتعيين عددها الخ هو لتقريب طريقة النصر لفهم الانسان ، فلا يقع فى الحيرة . وأما عمل الله فهو فوق إدراكنا ، ولا يمكننا أن نفهم منه إلا « كن فيكون » .

وكذلك الحال فى عصا موسى التى استعملها مع الساحرين وشق بها البحر لتخفيف وقع الصدمة على الحاضرين ، فهذه الحال لا تختلف ، فى رأى العين ، عن عصا الساحر ، ولكن أثرها يختلف اختلافا كلياً .

وكذا حمل امرأة سيدنا زكريا ، التى ذكرها القرآن فى سورة مريم ليمهد بها لقصة سيدنا عيسى : لا تقل فى الاعجاز

عن كل المعجزات ، ولكنها ملطفة لأن الناس كثيرا مايشاهدون العاقر تعالج وتلد ، وكذلك الشيخ الكبير، ولكن عقمها كان لسبب حقيقى كالذى فقد رجليه ، ولكن الله جلت قدرته أراد اللطف بعباده .

ولمنع التكرار سأورد هنا آيات من مريم لعلاقتها بسيدنا عيسى : قال الله تعالى : « فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربكِ لأهب لكِ غلاما زكيا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أكُ بغيا . قال كذلكِ قال ربكِ هو علىّ هيّن » .

وهذه المعجزة كما قلنا لطف الله فيها بمريم فأراها ملكا فى شكل بشر ، وقال لها: سأهب لك غلاما ، فأجابت بأن هذا غير ممكن لأنه لم يمسسها بشر ، ولكن رؤية الملك والظروف المحيطة برؤيته أوجدت عندها بعض الشك فى أنها ربما حملت ولكن بطريقة غير عادية ، وهذا ليهيىء عقلها لاحتمال صدمة الحمل عند ما يحصل .

« والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » : هذا ليهيىء أفكار الناس ويقلل من صدمة المعجزة ، وكأن الله تعالى

يقول لنا إن النفخ أخذ مكان نطفة الرجل مع أن تمثل الملك بالبشر ليس إلا مثل تشكيل الطين بالطير ، و « النفخ » فى حكاية سـيدنا عيسى ليس إلا كالنفخ فى الطين ، وكل ذلك لتقريب فهم المعجزة .

والحقيقة أن سيدنا عيسى خلق من نطفة السيدة مريم ، والجزء الآخر الذى يمثل الرجل خلق باذن الله وقدرته ، ولا يمكننا أن نعرف أكثر من ذلك « كن فيكون » .

وأهمية الحادث هى ليست فى خلق إنسان لأن الآلاف تولد يوميا . ولكن الأهمية هى فى أن السنن التى خلقها الله وكفل لها الاستمرار وعدم التبديل ، والتى وجد بها العالم كله ويسميها الطبيعيون الطبيعة « ولن تجد لسنة الله تبديلا» قد بدلت . وهذا لا يكون ولا يمكن أن يكون إلا بالقدرة الالهية التى تضع جميع السنن . أى أن سيدنا عيسى خلق بسنة جديدة ، فخلقه بمثابة « بدء الخلق » تماما ، وهذا هو السبب فى أن ولادته وحياته كانت صدمة شديدة للذين كانوا فى عصر ولادته من الناس ، وللذين جاءوا من بعدهم ، حتى أن أمما فتنت وقالت إنه ليس بشرا مثل آدم بل هو ابن الله ، وأن ولادته مع ما صحبها من الملطفات قسمت الأمم شيعا ،

ولكن هذه إرادة المولى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » .

ولما كانت المعجزات بما فيها من خرق للنواميس الطبيعية والانفعالات النفسانية تدخل فى اختصاص الطبيب أكثر من غيره ، جئت ألخص هنا ما وصلت إليه من قواعد أساسية فى كل ما ورد فى القرآن منها :

١ — المعجزات كلها من صنع الله مباشرة ، ومعناها سنة جديدة ، بخلاف كل ما نراه يومياً من عظة وعظمة : كالولادة ونمو الحيوان والنبات ، فانه مع إعجازه يأتى مطابقاً لقواعد ونظم وضعها الله لا تتغير .

وأظهر مثل للنواميس الطبيعية حركة الشمس ، فان ذلك مع عظمته لا يحدث صدمة لتعودنا إياه ، ولكن إن أتى الله بالشمس من المغرب بدل المشرق كان هذا معجزة بالنسبة للانسان ، مع أن الحركتين من صنع الله ولا فرق بينهما .

٢ — لا تحصل المعجزات إلا على أيدى الأنبياء ، وذلك لأن صدمتها إن كانت شديدة على الحاضرين فهى أشد على من يكون واسطة فيها ، ولذلك اختار الله الأنبياء واصطفاهم .

٣ — لمنع الصدمة الشـديدة وقت حدوثها يهيء الله الظروف لتحملها، ويهيء النبي نفسه لقبولها، ويهيء الحاضرين لمشاهدتها ، فأمر الله لسيدنا موسى بادخال يده فى جيبه وإخراجها فتكون بيضاء، ليس إلا لتهيئته للمعجزات الأخرى. وكذلك عدم استطاعة سيدنا زكريا الكلام ثلاثة أيام قبل حدوث الحمل عند امرأته .

وقد سبق الكلام على تهيئة الحاضرين والمستمعين ،. وهذا هو السبب فى أن المعجزات تظهر دائماً ملطفة بمقادير مختلفة ، وهذا سر ذكر قصة سيدنا زكريا قبل قصة سيدنا عيسى فى سورة مريم .

٤ — ليس للعقل البشرى أن يحكم على أى المعجزات أعظم من الأخرى ، ولا أن يتكلم عن الطريقة التى تحصل بها المعجزات ، لأنه يتكلم عن شىء كله مجهول له ما دامت المعجزة من صنع الله ، وما دام الانسان وعقله من صنع الله كذلك على مقتضى سننه ، ولا يستطيع المخلوق أن يفهم السنة التى خلق عليها ، وإلا لاستطاع الانسان أن يخلق نفسه بنفسه، وأن يتحكم فى خلق غيره .

وهنا يلاحظ أن كل المعجزات لا يمكن أن يصل إلى

صنعها الانسان مهما ارتقى ، وأغلبها ينتهى إلى شيء واحد وهو خلق الحياة والروح مهما ظهرت صغيرة لأول نظرة ، فمثلا إبراء عيسى للأعمى يظهر لأول وهلة أنه أقل من إحياء الموتى . والحقيقة أن المقصود بالأعمى هنا هو الأعمى الذى فقد شيئاً عضوياً حيساً لا يمكن استعاضته ، ومن أمكنه استعاضة شيء مهما صغر حجمه أمكنه أن يستعيض الكل . وأما إبراء الأعمى الذى يشاهد يومياً فهذا يحدث فى الأحوال العصبية غير العضوية ، وبواسطة أطباء العيون ، وهو يحدث بازالة أشياء تكون سبب العمى ، ولكن لا يمكن الأطباء أن يحدثوا مثلا إبراء الأعمى باعادة عصب للعين من جديد الخ . وكذلك صنع أرجل جديدة ، فالجراح يصنع رجلا صناعية، وبواسطة العضلات الباقية يستطيع الانسان أن يمشى عليها، ولكن هذا الجراح لا يمكنه أن يصنع رجلا من لحم ودم .

وصفوة القول أنه لا يمكنه أن يصنع جزءا حيا مهما صغر حجمه ، لأن الجسم مجموع ملايين من الخلايا ، وصنع واحدة كصنع الكل ، وهذا معنى قوله تعالى : « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » ولذلك ستبقى المعجزات دائماً فوق قدرة الانسان . ويظهر لنا عظمها أو عدم عظمها بالنسبة

لعقولنا فقط ، ولكنها كلها من نوع واحد . وما كان صنعه فوق إدرا كنا لا يمكننا الحكم عليه .

وقد يقول البعض: إن العلوم تتقدم ، وإنه لو كان بعض الاختراعات الموجودة الآن موجوداً فى مدة الأنبياء لعدت معجزات ، وهذا القول دليل على أن الروح الحقيقى للمعجزات لم يفهم ، لأن كل الاختراعات العلمية تبنى على السنن الطبيعية ، وكلها مبنية على قواعد علمية لا تتغير ، فاذا ظهر لها استثناء فان سببه هو قاعدة علمية أخرى يبحث العالم عنها حتى يجدها ، فان وجدها لا تنطبق على كل الاستثناءات وجد الخوارج عن هذه الاستثناءات محكومة بسنة أخرى ، وهكذا إلى ما لا نهاية . فالسنن الالهية أو القواعد العلمية (أو قواعد الطبيعة — كما يسميها الطبيعيون) لا حد لها ، ولا تتغير أبداً . وما لا ينطبق على القاعدة الأصلية ينطبق حتما على قاعدة أخرى وعلى قواعد لا تتغير أيضا ، وكل ما يظهر مدهشا فى نتيجته من المخترعات مثل الكهرباء والتليفون والراديو وما سيظهر ، هو من الاستعانة بهذه القواعد ، فالذى يتكلم فى أوربا ويسمعه آخر فى مصر بواسطة الراديو ، استطاع ذلك لأن الهواء بطبيعته يحمل الصوت بصفة أمواج إلى العالم كله ،

فاستعان العلماء بهذه السنة الطبيعية وسخروها لأغراضهم ، ولذلك مهما عظمت النتائج فى المخترعات فان طريق الوصول اليها سنة ثابتة ، ومثلها مثل من يحفر الأرض ويستعين بماء المطر ويحوله نهرا يجرى ، فانه لم يخلق نهرا ولكنه استعان بالقوى الطبيعية ، بعكس المعجزات فانها من طراز آخر ، وهى مهما صغرت نتائجها خلق سنة جديدة . وقد أوضحنا ذلك فيما تقدم

ولزيادة الإيضاح أضرب مثلا قصة سيدنا ابراهيم وعدم احتراقه بالنار، فان العلم بتقدمه يستطيع أن يغطى الانسان بشىء غير قابل للاحتراق ويضعه فى النار فلا يحترق ، وهذا يشبه المعجزة ، ولكنه اختراع استعان صاحبه فيه بالنواميس الطبيعية ، أما المعجزة فهى أن تضع الانسان كما هو جسما ولحما فى النار ، فيكون عدم احتراقه هنا ، أى المعجزة ، خرقا للسنة الطبيعية التى تقضى باحتراق الجسم إذا وضع فى النار . وأما تغطية الجسم لمنع اتصال النار به فانه يظهر أن المخترع أمكنه منع النار من إحراقه ، ولكنه فى الحقيقة منع النار من إحراق الجسم الخارجى الذى لا يقبل الاحتراق بطبيعته ، لأن جسم الانسان المغطى بمادة لا تحترق لم يتعرض للنار .

والفرق بين الاثنين ظاهر . والفرق بين المخترع وصانع المعجزة مثل الفرق بين الحاوى والمخترع .

ويمكن تطبيق هذه النظرية فى معجزة « ذى النون » لأن الانسان يمكنه أن يعيش أياما فى الغواصات تحت البحر ، ولكنه يفعل ذلك بالاستعانة بالنواميس الطبيعية ، وأما المعجزة فتكون بخرق القوانين ، وهكذا مكث ذو النون فى بطن الحوت بدون هواء صناعى ، معرضا لأن يهضم ويتحول جسمه مثل باقى المواد .

والطبيب الذى يعيد للقلب ضرباته ليس كمن يحيى الموتى ، لأنه استعان بالسنن الطبيعية ، وأما إحياء الموتى فهو خرق لهذه السنن . ويتساءل كثيرون : هل المعجزات ضرورية ؟ والجواب أنها ضرورية لايمان الانسان بقدرة الله ، ولولاها لساد مذهب الطبيعيين ، لأن سنن الله لا تتغير أبدا ، وهذا ما يسمى « بالطبيعة » ولا فرق بين الاثنين ، وثبات هذه القوانين ما ظهر منها وما خفى للآن شىء مدهش ، حتى إنه الانسان قد ينسى واضع هذه القوانين ويقول : ما الحاجة بى لأن أقول إن هناك صانعا أزليا ما دامت هذه القواعد ثابتة على وتيرة واحدة ملايين السنين ؟ وهنا كانت حكمة الله

فى أن يخرق هذه السنن ليظهر للناس أن الصـــانع الأول موجود . ومثل ذلك مثل آلة الميزان تزن الانسان إذا وقف عليها ووضع قطعة معدنية فى ثقب فيها فتخرج ورقة عليها رقم وزنه ، فإذا فرضنا أنها محكمة الصنع لا تتغير أبدا آلاف السنين ، فإن الانسان يشك فى صانعها الأول ، ولكنه إن رأى أنها قد تخرج ورقة الوزن بدون أن يقف عليها أحد ، وبدون وضع القطعة المعدنية فيها ، يقول : من يفعل ذلك ربما أمكنه صنعها ، وإذا رأى يوما ما أن قطعة معدن صغيرة أصبحت أمام عينيه آلة صغيرة تزن الأشخاص ، أيقن أن للأولى صانعاً ، وهذا هو معنى صنع الطير من الطين ، لأن هذا تمثيل لخلق سيدنا آدم الذى منه خلق العالم الانسانى كله بالسنن (الطبيعية) الالهية التى لا تبديل فيها .

وصفوة القول أن أساس المعجزة وعظمتها ليس فى نتائجها وغرابتها . فالدهشة من سماع الأبكم يتكلم ربما كانت أقل من سماع الراديو لأول وهلة ، ولكن أهمية المعجزة فى طريقة صنعها بدون السنن الاعتيادية ، وهى لذلك لا تتكرر أبداً إلا باذن الله . لأن الانسان لا يعرف قاعدتها ولا يدرك طريقة صنعها . أما الاختراع فانه اكتشاف لناموس إلهى (طبيعى) ، ولذلك هو يتكرر دائما فى الظروف نفسها على يد كل إنسان .

خلق عيسى وآدم
وبحوث أخرى

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » الآية ٥٩ من آل عمران .

هذه الآية تفسر ما قلناه سابقا فى حمل السيدة مريم ، وهو أن الملك والنفخ الخ ، إنما هى ملطفات لوقع المعجزة فقط ، وأما الحقيقة فانه مادامت السنن الالهية قد بدلت فلا ضرورة لطريقة مخصوصة ، فان عقولنا لا تفهم إلا أن الله تعالى يقول « كن فيكون » . وهنا وجه الشبه بين ولادة عيسى وخلق آدم ، وكلاهما من صنع الله مباشرة ، وعلى غير طريقة السنن الاعتيادية التى يبحث عنها الانسان ويجدها دائما لا تتبدل إذا تساوت ظروف التجربة ويمكن أن يكررها الانسان بنفسه مراراً ، وأما خلق عيسى وآدم فلا يمكن أن نفهم طريقته .

تقريب المعجزة لفهم الانسان :

« إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة

آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هـذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائـكة مسومين » ١٢٥ من سورة آل عمران .

قد سبق تفسير هذه الآيات ، والله تعالى يخاطب الانسان بالطريقة التى يفهمها . والحقيقة أن الله مادام قدر لهم النصر فلا ضرورة لأى عدد مخصوص يأتى لمساعدتهم . وكأن الله تعالى يخاطبهم حسب عقولهم ويقول لهم : إن صبرتم فان النصر يـكون أكمل ، وإن خمسة آلاف تقاتل معكم بدل ثلاثة آلاف .

ضعف الانسان وجهله :

« قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » ١٤٥ من سورة آل عمران

هذه الآية تذكر الانسان بضعفه . وأن موته ليس بيده ، وأنه لا يتحكم فى مستقبله كما أنه لا يتحكم فى ولادته . ورب قائل يقول : مادام الانسان فى بيته ولايخرج منه فكيف يبرز منه ليقتل ؟ والحقيقة هى أن عقل الانسان الذى يحكم به على الأشـياء فى حالاته الاعتيادية ، ويستعمله ليفر من الموت ،

يجعله عرضة لتأثيرات عنيفة من الانفعالات العصبية التى تصيره فى حالة جنون وقتى قد يؤدى به إلى الموت الذى كان يفر منه .

وأضرب لذلك مثلا شاهدته بنفسى ، وهو أن شيخا يبلغ من العمر فوق الستين يحب حياته ويخشى الموت ، ولا يأتمن أحدا على أن يعطيه الدواء حتى أقرب الناس اليه ، وكان يأخذ بنفسه حبة الدواء عند الحاجة إلى النوم حتى يتأكد أنه لم يتعاط أكثر مما يجب ، وقد حصل له فى ذات يوم انفعالات عصبية مع أرق اضطر معها إلى أن يزيد كمية الحبوب المنومة ، ولكنه بدل أن يأخذ اثنتين أخذ أكثر من ذلك ، بل تناول كل ما كان فى الأنبوبة ، وكان سبب وفاته نفسه التى كان يفر بها من الموت .

وهذا معنى قوله تعالى « لبرز الذين كتب عليهم القتل » . أى أن الشخص الذى لا يخرج من منزله خوفا من الموت قتلا لا بد أن يموت قتيلا ، لو كتب عليه القتل : « قل إن الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم » .

وفى هذا إظهار لضعف الانسان وجهله ، فان عدم المعرفة الكاملة يعرضه لأن يقع فيما كان يريد أن يتحاشاه . وهذا

معنى المثل القائل : « نصف المعرفة أضر من عدم المعرفة » . فهذا الشيخ الذى يحب حياته ويحتاط لها ، عرف بالتجارب أن يأتمن نفسه على حياته أكثر مما يأتمن الذين حوله ، ولكنه كان جاهلا بعلم النفس ، ولم يعرف أن عقله ليس شيئا ثابتا ، وأنه يتقلب كثيرا بالمؤثرات ، وقد يكون أشد ضررا على نفسه ممن حوله ، وهو لو عرف ذلك أيضا فانه يجهل أشياء أخرى . وهكذا يبقى الانسان طفلا أمام الحوادث ولا يصيبه إلا ما كتب له .

خلق الانسان :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » الآية ٢ من سورة النساء .

تفسير هذه الآية ظاهر بعد ما قيل فى السنن الطبيعية والمعجزات . فأول المخلوقات سيدنا آدم ، ومنه زوجه . وقد خلق سيدنا آدم بطريقة لا نعرفها . وأما باقى المخلوقات فانها خلقت من هذه النفس الواحدة بطريقة التناسل ، وهى من السنن الطبيعية التى لا تتبدل إلا حيث يريد الخالق كما قلنا فى المعجزات . وهذا معنى الآية الكريمة « وهو الذى يبدأ الخلق » .

فهناك فرق بين خلق سيدنا آدم وبين خلق أى إنسان : فالأول خلق كاملا ، خلقه الله الذى يستحيل عليه النقص ، وأما باقى المخلوقات البشرية فقد خلقت بالسنن الالهية ، وهذه السنن تتأثر بسنن إلهية أخرى ، ولذلك كان هناك تفاوت كبير فى كمالها بالنسبة للجسم والعقل .

وسأضرب لذلك مثلا : شخص يصاب بمرض الزهرى فيكون أولاده مرضى بدرجات مختلفة ، وقد يكون فى جسمهم جراثيم الزهرى ، وقد يكون منهم الأعمى والأصم والأبكم الخ ، أى أنهم يكونون غير كاملي الخلقة . وقد يولد الطفل ميتا أو يعيش مدة قصيرة . وتفسير هذا النقص فى الخلقة هو أن خلق الانسان كما أنه نتيجة سنن طبيعية لا تتبدل ، كذلك حياة الجراثيم وحياة كل شىء إنما هى نتيجة سنن طبيعية أخرى . وقد اقتضت إرادة الله أن تعيش هذه الجراثيم على جسم الانسان ، فهى مضرة بالانسان ، ومضرة بنسله الذى هو جزء منه ، ولكنها لا تعيش إلا على جسم الانسان ، وتموت بعد مدة قصيرة إن بقيت بعيدة عنه . فالنقص الذى يظهر فى النسل مثل النقص الذى يحدث فى الجسم نتيجة حادثة طبيعية ، لأن الاثنين نتيجة سنن طبيعية .

وإذا سأل سائل : ألم يكن الله قادراً على أن يخلق كل فرد كاملا ؟ فالجواب: نعم ، إلا أن فى ذلك فائدة للنوع الانسانى، وسنشرحها فى مقال آخر . والنقص الظاهر الفردى هو من كمال السنن الالهية وكمال النوع الانسانى . فالشخص الذى يسقط من مكان عال ويفقد رجله مثلا لا يقال إن خلقته ناقصة من أول تكوينه ، لأن ما طرأ عليه هو شىء نفهمه من القواعد الطبيعية . وكذلك الشخص الذى يعرض نفسه للجراثيم ويمرض وتنتقل الجراثيم إلى نسله ، لا يكون نسله ناقصا من أول تكوينه ، ولكن المرض طرأ عليه حسب الناموس الطبيعى (الالهى) . وهذه الأمراض التى يتعرض لها الانسان لا تخلو من فوائد جمة سأتكلم عنها فى تفسير آيات أخرى .

الحكمة فى تبديل جلود الكفار :

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، إن الله كان عزيزاً حكيماً » الآية ٥٦ من سورة النساء .

هذه الآية تقول : إن النار كلما أكلت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها . والسبب فى ذلك أن أعصاب الألم هى فى الطبقة

الجلدية ، وأما الأنسجة والعضلات والأعضـــاء الداخلية فالاحساس فيها ضعيف ، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذى لا يتجاوز الجلد يحدث ألما شديدا ، بخلاف الحرق الشديد الذى يتجاوز الجلد إلى الأنسجة ، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألما كثيرا . فالله تعالى يقول لنا : إن النار كلما أكلت الجلد الذى فيه الأعصاب نجدده كى يستمر الألم بلا انقطاع ، ويذوقوا العذاب الأليم . وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الانسان ، وكان الله عزيزا حكيما .

حكمة القرآن وعظمته :

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » ٨٢ من سورة النساء .

هذه الآية الكريمة هى التى دعتنى إلى تفسير بعض الآيات لأنى وجدتها يفسر بعضها بعضا بلا اختلاف ، وإذا ظهر مثل هذا أو كان ما لا يتفق مع الآراء العلمية فيما مضى فانه كلما تقدمت العلوم ظهرت حكمة القرآن ، وظهر أن كل شىء لا يتفق مع القرآن باطل ، والأمثلة كثيرة فيما قلنا وفيما سيأتى .

حكمة الوضوء وفوائده الطبية

« يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين»
الآية ٦ من سورة المائدة

حركة الوضوء يقصد منها : حركة استعداد للصلاة ، لأن الصلاة معناها أن يتصور الشخص أنه أمام الخالق ، وأن يكون خاشعا ، وأنه يقوم بإظهار عبوديته ، فلكى يتهيأ ذهنه لذلك ويتخلص من شواغل الحياة الكثيرة ، فرض عليه الوضوء قبل القيام بالعبادة . وفى اعتقادى أنه يحسن بمن يريد أن يحصر عقله كله فى عبادة ربه ، دون أن تشغله الحياة التى نراها فى هذا العصر ، يحسن أن يستريح زمنا قبل الصلاة ليستجمع قواه العقلية ، ويهيء نفسه للخشوع ، ويترك شواغل الدنيا .

وإذا كان الانسان مشغولا بتفكير عميق فانه لا يرى ما يقع أمامه ، ولا يسمع بما يدق حوله ، وهو والحالة هذه يحتاج إلى تنبيه ليرى ويسمع ، وهذه نظرية فسيولوجية لكل

الحواس التى لا تؤدى وظيفتها إلا إذا كان المخ غير مشغول بشىء آخر ، وحتى يكون على استعداد لاستعمال الحاسة الخاصة . وكذلك الشأن فى حركة التفكير ، فالذى يفكر فى شىء مهم لا يمكنه أن يفكر فى شىء آخر إلا إذا تنبه اليه بانفعالات عصبية، وهنا يترك التفكير الأول فجأة وعلى عجل ، وأما إذا أريد تنبيهه ليفكر فى شىء آخر تفكيرا هادئا فانه يحتاج إلى وقت ما ، فان الذى يفكر فى التجارة والزراعة ثم يقال له قم للعبادة ، يجد صعوبة فى تأديتها .

وهنا كانت حكمة الوضوء ، لأنه يساعد الانسان على ترك التفكير الأول ، ويعطيه الوقت الكافى ليبدأ فى تفكير عميق من نوع آخر . ومما لا شك فيه أن الشخص إذا كان كثير الاشتغال بأمور الدنيا يصعب عليه حتى بعد الوضوء أن يترك تفكيره الأول تركا تاما ، ولذلك كانت الحكمة فى الذهاب إلى المسجد قبل موعد الصلاة ، كما كانت الحكمة فى الحث على عدم الافراط فى حب الدنيا . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » ، وفى الحث كذلك على عدم الاهتمام بالفشل والنجاح « لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » . وكل ذلك حتى لا يشتغل

عقل الانسان بأمور الدنيا اشتغالا يصعب معه أو يستحيل أن يكون مطمئن البال . وأن يكون خاشعا وقت الوقوف بين يدى الله ، حتى بعد حركة التنبيه التى يحدثها الوضوء .

وقد شبه الدكتور محمد عبد الحميد الوضوء بفترة الاستراحة بين محاضرتين ، فهى تعطى الطالب الوقت لترك التفكير فى المحاضرة الأولى ، وأخذ الأهبة للمحاضرة الثانية .

أما الفوائد الأخرى للوضوء فكثيرة من الوجهة الطبية .

فنظافة الفم مرات متعددة فى اليوم ، من أهم أسباب الوقاية من مرض الأسنان واللثة . كذلك غسل طاقة الأنف بماء بارد من أهم الوقاية من الزكام المتكرر ، وكأنها مثل الحقن بالفاكسين ، وقد كتب أخيرا فى هذا الشأن أطباء اختصاصيون فى الأنف .

وفوائد غسل الوجه والأذنين والأيدى ظاهرة ، من كثرة ما يصيب الوجه والأجزاء المعرضة عادة للأمراض الجلدية ، وللالتهابات ، فان غسلها عدة مرات كل يوم أحسن وقاية لها من ذلك . وقد اتضح أخيرا أن كثيرا من الميكروبات (الجراثيم) بل الأغلبية منها تصيب الانسان بطريق اختراقها

الجلد ، كما اتضح أن طفيلات الديدان تدخل الجسم بطريق اختراق الجلد أيضا ، ولا شك فى أن الغسل المتكرر من الوقايات البسيطة الفعالة ، لأن الطبقة الخارجية للجلد تمنع كل الميكروبات من الوصول إلى داخل الجسم ، إلا إذا حصل فيها «تسلخ» abrasion ولو بسيطا ، فهى حينئذ تفقد وظيفتها وتتمكن الجراثيم من الدخول إلى الجسم . وأهم سبب لوجود التسلخات البسيطة هو (الهرش) وهو نتيجـــة عدم النظافة

وأما الجراثيم التى تدخل من الفم فلا تدخل إلا من. من طريق تلويث الأيدى ، فاذا كانت الأيدى مغسولة نظيفة على الدوام ، كانت أحسن وقاية

.·.

«يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون»

سبق الكلام على ضرر الخمر من الوجهة الطبية

تفاوت المعجزات

وتلطيف وقعها

« وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى » ١١٠ من سورة المائدة

سبق أن تكلمنا فى تفسير هذه المعجزات ، ووضحنا الفرق بينها وبين المخترعات ، ثم بينها وبين ما يمكن أن يأتيه الانسان مهما تقدم علمه . ومما يلاحظ أن المعجزات مرتبة بحسب تأثيرها فى الانسان، فإحياء الطير المصنوع من الطين أقل صدمة من ابراء الأكمه ، وأشدها صدمة هو إحياء الموتى ، ولكن الكل كما قلنا من صنع الله مباشرة

وقوله تعالى : « تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى » : هذه الكلمة الأخيرة من الآية تفسر ماقلناه سابقا من أن صنع الطين بهيئة الطير إنما هو تلطيف لوقع المعجزة . لأن الآية الكريمة تنص على أن الله أمر سيدنا عيسى بصنع الطير من الطين لغرض خاص ، وأما إذا صنعه شخص آخر أو صنعه سيدنا عيسى

من نفسه فى ظروف أخرى ، فإنه لا يفيد فى إدخال الروح الى الطين . وكذلك قوله تعالى : «بإذنى» بعد قوله : «فتنفخ فيها فتكون طيرا» لأن المهم هو إرادة الله لا حركة النفخ . وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا ، ويفسر ما قلناه سابقا فى المعجزات والمخترعات ، وهو أن المعجزات ليست لها طريقة يتعلمها الانسان ، وأنه مهما تشابهت ظروف التجربة فانها لا تكرر بل هى من صنع الله مباشرة . وأما المخترعات فهى كشف سنة طبيعية ، ويمكن الانسان أن يكررها مرارا على يديه ما دامت ظروف التجربة متشابهة ، حتى لو لم يفهم الانسان حقيقة السنن الطبيعية فانه لا يعرف ما هى الكهرباء ولا الحرارة الخ ، لكنه يعرف ويستفيد من كثير من السنن التى تتعلق بها ما دامت لا تتبدل — ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وقد أظهرنا فى الكلام على المعجزات أنه فيما يتعلق بالروح والحياة ، يمكن الانسان أن يستفيد من السنن الطبيعية التى تختص بها ، فالطبيب يمكنه أن يعطى دواء يقوى به القلب وبذلك يستمر على الحياة ، ولكنه لا يمكنه أن يوجد الحياة فى الجماد أو فى جسم ميت موتا تاما . وكلما تقدمت

العلوم ارتقى الانسان فى معرفة السنن الطبيعية ، ولكنه لن يبدأ خلقا جديدا لأن هذا من اختصاص الله ، وقد سبق البرهان على ذلك منطقيا : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم مَن إله غير الله يأتيكم به » ؟

علم الغيب

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو »

الآية ٥٩ من سورة الأنعام

هذه الآية لا علاقة لها بالطب مباشرة . ولكن الطبيب أحيانا يتنبأ بموت المريض بعد زمن معين ويصدق في نبوءته . فهل هذا معناه أنه يعلم شيئا من الغيب ؟ كذلك يتنبأ الفلكي بحادث فيحدث كما أنبأ به تماما ، والحقيقة أن معرفة الغيب عند الانسان تختلف اختلافا جوهريا عن علم الغيب عند الله . والفرق بينهما كالفرق بين الاختراع والمعجزة .

وعلم الغيب على أنواع :

١ — العلم من طريق السنن الالهية ، فالانسان يعرف ما سيأتي في الغيب بطريق معرفة السنن الطبيعية ، ولذلك كان علمه ناقصا ، فاذا علم قانونا وحكم به على الأشياء وما سيحدث لها فهو كثيرا ما يخطىء ، لأن هناك سننا أخرى طبيعية لم يعرفها تؤدي إلى نتيجة مخالفة لما ينتظره ، وهكذا يستمر في درس هذه السنن ويعرف شيئا ويبقى جاهلا أشياء الى النهاية .

وأما علم الله فهو من نوع آخر ، لأنه واضع السنن كلها ولا يخفى عليه أى قانون من القوانين الطبيعية التى وضعها ، ولذلك كان علمه جل وعلا وإرادته لا ينفصلان أبدا ، فعلمه بالشىء معناه حدوث هذا الشىء لا محالة ، بخلاف علم الانسان الناقص الذى ليس له علاقة بحدوث الشىء مطلقا . والفلكى الذى يتنبأ بالحادث لا علاقة له به ولا تأثير له فى إيجاد الحادث مطلقا . والطبيب الذى يتنبأ بالموت لا علاقة له بموت المريض . وقد بين الله لنا مقدار علمه بكل السنن الطبيعية كما قلنا بقوله : « ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » لأن لكل هذا سننا لم يتعلم الانسان إلا ماندر منها ، وكل ماعرفه ناقص أبدا « وفوق كل ذى علم عليم » « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وهذا النوع من العلم هو الذى حثت الأديان على الاستزادة منه ، لأنه يفيد الانسان ، ولأنه فى متناول إدراكه الذى منحه الله إياه ، ومعناه العلوم القديمة والحديثة كلها ، ومعناه كل معرفة (Knowledge) .

٢ — علم الغيب الذى لا يتناوله إدراكنا لأنه ليس

من السنن الطبيعية التى يحتاج لها الانسان فى نموه من النطفة الى أن يصير شخصا كاملا ، وهذا هو المقصود من الآية الكريمة «عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول» .

والرسول يعرف الغيب بما يوحيه اليه الخالق . لأن ذلك يشبه المعجزة ، وليس له قانون يدرس ، ولذلك لا يمكن الإنسان معرفته بجده واجتهاده ، والرسول لا يعلمه إلا بالقدر الذى يعلمه الله إياه ، والذى يهيئه الله له ، وهذا هو معنى الآية «واصطنعتك لنفسى» مخاطبا به نبيه موسى عليه السلام ، أى أنه أعطاه من الادراك ما يمكنه من فهم ما يوحى اليه «الله أعلم حيث يجعل رسالته» .

وعلم الغيب يشمل كل ما أمرنا القرآن بأن نؤمن به: «الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون» .

فنؤمن بالآخرة وما فيها ، وببدء الخلق وإحياء الموتى ، وبالمعجزات الخ ، وكل ذلك بدون أن نجد له قانونا يرشدنا كما نجد قوانين السنن الطبيعية ، ويجب مع هذا التصديق به ، إذ التصديق به شرط أساسى للايمان الصحيح .

والحقيقة أن هــــذا النوع من العلوم هو ما يقال له «Nelaphysis» أوما فوق المادة ، أوماوراء الطبيعة . وقد كتبت عنه مؤلفات فى كل الأجيال ، وكثرت التعاريف الفلسفية فيه ، وأخيراً تقدمت العلوم الحقيقية (علوم السنن الطبيعية) . وقد اقتنعت بعد الفحص والتدقيق فى كل ما كتب عنه بأن عقل الانسان لم يخلق لفهمه ، وأن السبب فى ذلك ظاهر : هو أن عقل الانسان نتيجة نمو النطفة بالسنن الطبيعية ،كما ينمو النبات من البذور تماما ، فالله لم يهيء الانسان إلا بالقدر الذى يفهم به القوانين التى تهديه الى طريقه « الذى خلق فسوى، والذى قدر فهدى» وقد خلق الله للانسان من الحواس مايكفيه فقط . والله لا يخلق شيئا عبثا وزائدا عن الحاجة أبدا ، « إنا كل شيء خلقناه بقدَر» . وهذا هو معنى الآية « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » . فالانسان يبحث ويتعلم كل ماله علاقة بالقوانين الإلهية التى تؤثر فيه فى النوع الأول من علوم الغيب ، واذا حاول فهم ما فوق ذلك من قبل خلق النطفة: مثل بدء الخلق ، وطريقة إحياء الموتى ، وأخبار الآخرة ، فانه يحاول فهم المجهول ، مع أنه ليس له من الحواس ما يساعده على فهمه ، فعليه أن يمتثل ويصدق ما أنزله الله ،

وإن لم يصدق فسيضيع وقته فى البحث عنه عبثا ، والله يخاطب الانسان مظهرا له ضعفه ، وأنه لا يقدر على فهم أشياء كثيرة بقوله تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » ، وقوله : « ألم يك نطفة من منى يمنى » أى أنه مثل بذرة النبات فى دور من أدوار حياته ، ونقطة فى إفرازات شخص آخر ، وهذه النطفة التى لا حول لهـا ولا قوة اذا تعهدتها السنن الإلهية (الطبيعية) تصير إنسانا . فهل ينسى ضعفه المتناهى ويبدأ بالبحث عن أشياء لم يخلق لأجلها ؟

والانسان لا يشذ عن باقى الحيوانات التى ليس فيها من الحواس والادراك الا بالقدر الذى يمكن النطفة من النمو الى النهاية ، وهذه قاعدة علمية عامة لا استثناء لها .

ولإيضاح الفرق بين النوعين من علوم الغيب نقول : إن الله تعالى وصف الانسان فى النوع الأول بأنه عالم بعض العلم : « وفوق كل ذى علم عليم » ، وبين له مقدار علم الله بما معناه أنه يعلم كل صغيرة وكبيرة فى الأرض والسماء .

فاذا كان الانسان يعرف أشياء من الغيب بمعرفة بعض قوانين طبيعية أفلا يكون عند الله مفاتيح الغيب كلها ، وهو الذى وضع كل السنن ؟ فالله الذى خلق آدم وخلق منه زوجه

علم مقدار ذريتهما من ذكر وأنثى ، وعلم ماسيقع لهؤلاء جميعا بعلمه بما فى نطفهم قبل ظهورهم فى الحياة ، وهو يعلم كذلك كل الظروف المحيطة بهم حتى النهاية ، فهو الذى بدأ الخلق وعلم منذ البدء كل ما سيكون . وكما أن النطفة التى لا يزيد قدرها عن عشر المليمتر تنمو بالسنن حتى تصير إنسانا ، كذلك كل مميزات الانسان عن الحيوانات الأخرى، ومميزاته عن غيره حتى فى أصغر الأشياء : موجودة وممثلة فى هذه النطفة . وكذلك نطف بنى آدم جميعا فانها ممثلة فى آدم وحواء ، ولكنها لا تحتاج الا الى السنن الالهية لتظهر أمام أعيننا ، وذلك لأن كل فرد منا ممثل فى عالم الذرة من يوم بدأ الله الخلق . ولو أعطى الله الانسان علما لعرف الأولاد وهم أقل من النطفة فى أرحام أمهاتهم ، وعرف أولاد أولادهم فى هذا الجسم الذى هو أقل من النطفة ، وهكذا . فالخالق يعلم جميع بنى آدم ممثلين فى آدم وحواء . وسأضرب لذلك مثلا :

صندوق فيه ملايين من الصور الصغيرة للسينما (فلم) . فهذا الصندوق المغلق يعرف كل ما فيه الصانع الذى صنعه ، ولكن الانسان العادى لايعرف مافيه الا اذا عرض بشريط سينمائى ، فالمتفرجون يعرفون ما يظهر منه أولا فأولا ،

ويظهر لهم كأنه شيء جديد ولكنه في الحقيقة قديم. وكذلك عقل الانسان: فانه يقسم الزمن الى ماض وحاضر ومستقبل، ويدفعه لأن يسمى ما يظهر له بمرور الزمن «مستقبلا وغيبا». والحقيقة أنه غيب بالنسبة له، ولكن الله الذى خلقه وخلق السنن الطبيعية غنى عن عرض سينمائى، لأنه هو الصانع الأكبر الذى يعلم كل ما فيه «ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها». وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا.

وأما النوع الثانى من الغيب فالانسان فى ظلمة تامة بالنسبة له. وهنا يخاطبه الخالق بقوله: «هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا». ومعناه أنه لم يكن نطفة فقط ولكنه كان ممثلا فى نطفة آدم وحواء بشيء صغير جدا أقل من النطفة، واذا كان الخلق كله ممثلا فى نطفة آدم وزوجه فيكون كل فرد ممثلا فى جزء من أقل من آلاف الملايين من النطفة، وهذا مايسميه الخالق سبحانه وتعالى شيئا غير مذكور «infinitismal» ويستعمل العلماء هذه اللفظة فى العلوم الحديثة لكل شيء متناه فى الصغر، أو ثانى شيء للصفر أو عدم الوجود.

ورب سائل يقول: إن كل شيء يبدأ صغيراً كالمنزل

فانه يبنى من أجزاء صغيرة حتى يعلو ويأخذ شكله ، وليس فى ذلك غرابة ، والمنزل الكامل شىء آخر غير الأجزاء المكون منها . ولكن الانسان ليس كذلك ، فهو يتكون من النطفة لا باضافة شىء حى جديد مطلقا ، ولكن بتحويل الأجسام الميتة (الغذاء الخ) الى شىء حى كما قلنا فى تفسير « يخرج الحى من الميت » . فجسم الانسان عند نموه ليس الا النطفة مكبرة باضافة أشياء ميتة اليها ، والنطفة تمثل الانسان بدقة مدهشة ، ومثلها مثل صورة صغيرة جدا اذا كبر حجمها بدون تغيير ، وهكذا يقول الله للانسان : « إنك فى زمن من الأزمان كنت شيئا غير مذكور تافها ، ولم يطرأ عليك الا زيادة الحجم » . وليس هناك فرق بين الصورة المصغرة والصورة المكبرة الا الحجم . وفى هذا إظهار لقدرة الله وشدة ضعف الانسان ، وأنه لا يدرك الا ما خلق لأجله .

وصفوة القول فى هذا النوع من الغيب هو أنه يشبه المعجزات ، فكما أنه لا حول لنا ولا قوة أمام المعجزات ، كذلك نجد جهلنا كاملا بالنسبة لعلوم الغيب ، فلا نعرف منها إلا ما يخبرنا الله به على لسان الأنبياء ، ومثلنا مثل من يولد أعمى ، اذ لا يمكنه إدراك ما يقصده البصير عند الكلام على الألوان المختلفة .

النوم وقربه من الموت :

« وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى » : الأنعام : ٦٠

سبق الكلام عن النوم وأنه أقرب شيء للموت، ولكنه يؤدى الى الحركة بالنهار ، وحركة النهار تؤدى الى النوم ، وهكذا فالنوم مثال مصغر لموت الانسان ، كما أن حركة النهار مثال لحياته.

بحوث دينية علمية

الماء وضرورته للحياة :

« وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به المـاء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » .

الآية ٥٧ من سورة الأعراف

هذه الآية تفسر ما سبق تفسيره « وجعلنا من الماء كل شيء حى » الخ ، ومعناه أن الحياة لا توجد فى شيء الا اذا كان فيه نسبة مخصوصة من الماء تختلف بحسب أجزاء الأجسام ، ولا يمكن الحياة أن توجد فى شيء جاف مطلقا ، لأن الجفاف يوقف التغيرات الكيماوية التى هى الشرط الأساسى لتغيرات الجسم الحى وقوفا تاما ، وذلك يؤدى الى الموت حتما . والله تعالى يضرب لنا مثلا ويقول : إن الأرض الميتة تحيا بالماء ، أو ليس الله قادرا على أن يحيى الموتى بطريقة مثل هذه الطريقة ولو أننا لا نعرفها ولا تدخل فى متناول إدراكنا ؟

منشأ فاحشة قوم لوط :

« ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون » . ٨٠ ، ٨١ من سورة الأعراف

المهم فى هـــذه الآية من الوجهة العلمية قوله تعالى : « ماسبقكم بها من أحد من العالمين » ، لأن الآية تفسر ما قلناه سابقا من أن الله خلق آدم كاملا ، وما يطرأ من النقص فى ذريته جسما وعقلا هو نتيجة السنن الالهية ، وهذه الفاحشة المشار اليها فى الآية هى نتيجة تغيرات فى إفرازات الغدد الصماء ، وهذه الأمراض لم تصب الانسان لأول مرة إلا فى مدة لوط ، وهذا يفسر لنا التاريخ الطبي للأمراض من أن لكل مرض بداية لم يعرف قبلها ، وإذا عرفنا أن الغدد الصماء تؤثر فى أخلاق الشخص وعقله ، بل هى أساس كل ما هو مهم فى شخصيته ، جاز لنا أن نقول إن اختلاف الأمم فى أخلاقها وعاداتها هو نتيجة تغيرات فى الغدد ، وذلك تابع لما يصيبها من جراثيم أو حوادث طبيعية ، والجراثيم أمم أمثالنا تصيب الانسان فى أزمان مختلفة .

ولهذا كان الفرق بين كمال أول المخلوقات وبين النقص الشديد فى بعض الأفراد هو نتيجة للسنن الطبيعية ، والله الذى لا يخفى عليه شىء ، قدرها من أول خلقه آدم وخلقه الجراثيم الخ ، وعلم تأثير التغييرات فى عقول الأفراد وأخلاقهم ، وعلم ابتداء ظهور الأمراض الاجتماعية «ولو شاء لهداكم أجمعين» . ولله فى ذلك حكمة نرجو أن نوفق للكلام عليها فى المستقبل .

والمهم أن الانسان الأول خلق كاملا طاهراً من كل عيب ، وكل ما ظهر من عيوب فى ذريته هو نتيجة تصـــادم بين مخلوقات وعوامل مختلفة ، وفى هذا رد معقول على الذين يقولون : «كيف يخلق الله الانسان مع أن فيه عيوبا كثيرة والمخلوق منسوب للصانع ؟» .

قصور الانسان :

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك ، قال لن ترانى ولـكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين» .

الآية ١٤٣ من سورة الأعراف

هذه الآية تفسر ما قلناه سابقا من أن الانسان تنقصه

الحواس التى بها يرى الله جل وعلا ، ولذلك أمر الله سيدنا موسى بأن يرى تأثير القدرة الالهية فى دك الجبل . وهذا طريق للايمان أقرب لعقول بنى آدم من رؤية الخالق ، ولو شاء الله لأعطاه من الحواس ما يمكنه من رؤيته ، ولكن الله يقول له : إنى أعطيتك من الحواس أكثر مما أعطيت باقى المخلوقات مما يمكنك به أن تكلمنى لا أن ترانى ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » .
وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا ، ويفسر ما قلناه عن علوم الغيب . فالانســـان الذى لا يعرف من الغيب الا بقدر ما يعرف من سنن طبيعية يسمى جاهلا مهما عرف ، لأن قوانين السنن الطبيعية لاحد لها .

كذلك الأنبياء عليهم السلام بالنسبة لعلوم الغيب ، فهم من النوع الثانى الخارج عن السنن الطبيعيـة وعن إدراك الانسان ، لأن الله يصطفيهم ويعطيهم من الحواس والادراك ما يؤهلهم لما يريده من المعجزات على أيديهم فقط ، وأما باقى علم الله الذى لاحد له فلا يعلمه إلا الله . وهذا هو معنى قوله تعالى لسيدنا موسى ما معناه : إنك لا يمكنك أن ترانى ، وإنك

ستكلمنى بما أعطيتك من مميزات لم أعطها لغيرك . وهذا هو معنى الآية الكريمة على لسان النبى صلى الله عليه وسلم : « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب » وقوله تعالى : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء »

والفرق بين وجود دراهم معدودات عنـــد النبي وبين خزائن الله ، مثل الفرق بين معرفة النبي لبعض الغيب وبين مفاتيح الغيب كلها التى لا يعلمها إلا الله

القرآن وعلم الاجنة

« وإذ أخــــذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا »

١٧٢ من سورة الأعراف .

هذه الآية الكريمة تنص على أن الله أخذ ذرية بنى آدم من ظهورهم . والمعروف أن الخصى موضوعة فى الجزء الأسفل لا فى الظهر ، ولكن الله تعالى يتكلم عن خلق الانسان وذريته، ونشأته ، ولذا هو يتكلم عن علم Empryology أو « علم الآجنة » ، ويتكلم عن الجزء الذى يخصص للنطفة فى جسم الجنين . وهذا الجزء فى الظهر عند أسفل الكليتين تماما ، ومن هنا تنمو الأعضاء التى تكون الخصيتين ، وتبقى فى الظهر تحت الكليتين حتى الأشهر الأخيرة من حياة الجنين فى بطن أمه ، ثم تنحدر إلى أسفل ، وعند الولادة تكون فى مركزها الطبيعى المعتاد . وقد يتأخر الانحدار أحيانا ويولد الشخص وخصيتاه فى البطن ، ويسمى هذا فى الطب الخصية غير النازلة .

فالآية الكريمة تشير والحالة هذه الى النقطة الأصلية فى جسم الجنين التى تؤخذ منها النطفة ، وهذه هى الظهر بلاشك . ولما كان علم تشريح الجنين لم يتقدم إلا فى المائة السنة الأخيرة ، فان هذه الآية تعد فى حكم المعجزات ، وتثبت أن القرآن لا يأتيه الباطل أبدا .

وكذلك مركز المبيض فى أنثى الجنين ، فانه فى الظهر تحت الكلية تماما ، وسواء أكان الانسان ذكراً أم أنثى فإن الذرية تؤخذ من الظهر .

أما باقى الآية الكريمة «وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم» الآية ، فمعناه ظاهر مما سبق لنا ذكره فى علوم الغيب والسنن الطبيعية ، لأن كلا من المبيض والخصية مكون من نطف عديدة تنمو بالسنن الطبيعية وتصير إنسانا . ولا يعرف الانسان هذه النطف إلا إذا تعهدتها القوانين الإلهية ونمت الى درجة الأجنة على الأقل . وكذلك لا يعرف الانسان شيئا من مستقبلها أو كنهها إلا بمرور الزمن ، ولكن صانعها يعلم كل ما ستئول اليه فى المستقبل ، ويعلم كذلك الانسان الكامل فى النطفة ، التى هى صورة مصغرة له كما قلنا ، وتمثل كل صفات الشخص ، وكل ما يرثه تماما ، ولهذا نجد الخالق

سبحانه وتعالى يخاطب ذرية بنى آدم وقت خلقهم وهم فى عالم الذر ويعلمون خالقهم وهو يشهدهم على أنفسهم .

وأما الصورة المكبرة لهم — فى شكل الانسان — فكثيرا ما تنسى خالقها الأول بسبب ما يطرأ عليها من حوادث طبيعية تؤثر بمرور الزمن فى الجسم والعقل والأخلاق ، وقد يكون التأثير شديداً فتصدق عليهم هذه الآية « إنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله الصُّمُّ البُكم الذين لا يعقلون » .

تأثير العواطف فى الجسم

« وألَّفَ بين قلوبهم لو أنفقتَ ما فى الأرض جميعا ما ألفتَ بين قلوبهم ولكن الله ألفَ بينهم إنه عزيز حكيم » : ٦٣ من سورة الأنفال

تظهر هذه الآية الكريمة فى الأول صعبة الفهم ، لأن الشخص الذى يكره آخر ويقال له إن كراهتك إذا انقلبت محبة فستعطى جزاء كبيرا يعوض عليك كل ما يكون سببا فى هذه الكراهة ، إن هذا الشخص قد ينسى كراهته ، وقد يستبدل بها ألفة ، ولاسيما إذا كان الجزاء كبيرا ، والله يقول : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا » . فالحقيقة أن الكراهة والألفة قد تكون نتيجة لأسباب ظاهرية بسيطة لا تصل الى العواطف القلبية ، ومتى كانت كذلك أمكن الاستعاضة عنها ، بل استبدالها بسهولة ، فان السائل الذى يطلب إحسانا ثم لا يعطاه يكره المسئول ، ولكنه ينقلب الى شكره وحمده إذا أجاب سؤله .

وقد تكون الكراهة والألفة من «العواطف» أوالقوى

الحيوانية المنفعلة التى تنتج عن أسباب ظاهرية تتكرر فتحدث تغييرات عضوية فى أعضاء الجسم، وخصوصا المخ والغدد الصماء، وقد لا يكون للكراهة سبب ظاهر. على أنه فى كل من هاتين الحالتين تكون الكراهة أشبه شىء بالغرائز الطبيعية، ويكون أساسها تغييرات كيماوية فى المواد العضوية الحية، وتحدث هذه التغييرات مع التكرار أمراضا عضوية فى الأعضاء لا يمكن الشفاء منها، وكثيرا ما تكون ذكرى العاطفة أكبر محرك لزيادة المرض، وقد كثرت الأدلة على تأثير العواطف فى أعضاء الجسم، وقد بحث هذا كثير من علماء السكولوجيا، مثل (ادلر وينج) وغيرهما.

ومهما جاهد الشخص فى أن يغير من عاطفته فلن يفلح. والأم التى ترى ابنها يعذب يوميا بيد إنسان ما حتى ترى نهايته، لا يمكن أن ينقلب كرهها محبة قلبيـة مهما عوضت من ذلك، لأن التغييرات العضوية التى تحدث فى الأعضاء تمنعها من محبة هذا الشخص، وتحتاج الى تغييرات عضوية أخرى لتبدل بشعورها آخر. ومثلها فى ذلك مثل الذى فقد حاسة، فإنه لا يستطيع الإدراك إلا إذا استردها.

وهذا هو المقصود من الآية الكريمة، لأن خلق عضو

جديد أواسترداد حاسة ما ، هو من المعجزات التى لو أنفق النبى مافى الأرض جميعا ما أمكنه أن يأتى بها، وهى جميعا من صنع الله وحده .

وتعتبر هذه الآية الكريمة أيضا فى حكم المعجزات إذا علمنا أن (دارون) الذى كتب عن العواطف فى العهد القريب قبل أن يكتب عنها « ينج » لم يفطن الى التغيرات العضوية فى الأعضاء ، وأن هذه النظرية آخذة فى ازدياد خلال الخمسين السنة الأخيرة ، وإذا علمنا كل ذلك ظهرت لنا حكمة القرآن وعظمته ، وأنه لا يأتيه الباطل أبدا .

ولزيادة الايضاح للقارىء الذى ليس طبيبا سأضرب له أمثالا بسيطة على تأثير العواطف فى الجسم : فالخوف الشديد الذى يأتى فجأة قد يحدث منه تغيير فى الشعر ويصير أبيض اللون ؛ وكذا يحدث البهق فى الجلد والاضطراب والعناء المستمر ؛ كذلك يحدث البول السكرى ، وأحيانا لا يكون هذا قابلا للشفاء ، ويؤدى بالاستمرار الى هلاك غدة البانكرياس. وكذلك الكراهة المستمرة قد تحدث تغييرات عضوية فى الأعضاء لا تشفى بعد زوال السبب ، وتكون عودتها الى الحالة الطبيعية فوق طاقة الانسان .

التفكير وخلايا المخ

« ألا إنهم يَثْنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشُون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور » الآية ٥ من سورة هود

هذه الآية سهلة الفهم بعـــد ما تقدمت علوم النفس والتنويم المغنطيسى وغيرها . وظهر جليا أن كل فكرة يقابلها تغيير كيماوى فى الخلايا المخية ، وكما أنه لاحركة فى الأرجل دون أن يحصل انقباض العضلات ، كذلك لايمكن أن يفكر الانسان دون أن تحصل تغييرات فى خلايا المخ . وليس هذا هو الذى يحصل فقط ، بل إن هذه التغيرات تبقى مسجلة فى المخ الباطنى ، ومن الممكن أن يتذكرها الشخص بعد مدة طويلة تحت تأثيرات مخصوصة كالانفعالات العصبية أو التنويم المغنطيسى وغيرها ، ولو نسيها الشخص تمام النسيان .

وقد اكتشفت أخيراً أجهزة كهربائية يمكن بها معرفة حالة بعض الخلايا المخية إذا كانت فى حالة هدوء أو حالة

انشغال . وقد ترتقى العلوم أكثر من ذلك . هذا حال الانسان مع جهله .

والله سبحانه وتعالى يعلم كل ما يجول فى مخ الانسان ، وكل ما جال فى مخه ، وهو تعالى أعلم بها من الانسان نفسه لأنه عرضة للنسيان .

الدعاء أحد السنن الطبيعية

« وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » :

الآية ٥٢ من سورة هود

سأتكلم عن هذه الآية الكريمة بإيضاح مع آيات أخر تتعلق بالدعاء ، كقوله تعالى : « ادعونى أستجب لكم » و « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » و « إذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » و « لئن شكرتم لأزيدنكم » . وفى الحديث « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير . . . » الخ .

هذه الآيات الكريمة كلها من نوع واحد ، وهى تنظم علاقات العبد بالخالق . وبما أن الدعاء فى كل الأزمان والأديان كان يستعمل لشفاء الأمراض وغيرها ، فله علاقة بالطب من قديم .

والدعاء هو من السنن الطبيعية ، ولكنه مع ذلك ليس من السنن التى يمكن تجربتها آلاف المرات ، وبدقة ، مثل

الأشياء المادية ، لأن له علاقة بالخالق ، ولأنه يدخل فى علم الغيب من النوع الثانى ، مثل بدء الخلق والآخرة ، كما سبق لنا تفسيره ، مما لا نعرف منه شيئاً ، بل لا يمكننا معرفة شيء منه إلا بالقدر الذى يخبرنا به الخالق .

وهذه السنن مثل السنن الطبيعية المادية لا تتبدل أبدا ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولكن المشاهَد هو أن الدعاء لايجاب إلا نادراً، بخلاف السنن الطبيعية المتعلقة بالمادة ، لأننا نجد النتيجة دائما كما ننتظر ، ولو اختلفت وبحثنا عن السبب لوجدنا سببه سنة أخرى مكملة للسنة الأولى ، وهكذا . وهذا هو معنى العلوم .

وعدم إجابة الدعاء قد يكون :

١ — لأن الدعاء نفسه ، وهو سنة طبيعية ، قديكون ضد سنة طبيعية أخرى موجودة فعلا ، ولا تبديل فيها . فالشخص الذى يدعو ربه ليشفى ابنه مع أنه فارق الحياة — والطبيب يعرف ذلك ولكن الوالد يجهل — لا يقال إن دعاءه لم يستجب ، لأنه يدعو ضد سنة إلهية ، هى أن الميت لن يحيا بسنة طبيعية مثل الدعاء ، ولكنه يحيا باذن الله فقط ، كما فسرناه فى المعجزات . والانسان بطبيعته لو عرف أن ابنه

مات فعلا لا يستمر فى الدعاء. وكذلك من يدعو الله فى شى تكون نتيجته معروفة محتمة من سنة طبيعية أخرى ولكن الداعى يجهلها ، ولو علمها لما دعا ربه ، فالتاجر الذى يدعو ربه لرواج عمله لا ينتظر قبول دعوته مع استعماله للربا مثلا ، والأمة التى لا تغير ما بهـــا من المنكرات لا تنتظر إجابة الدعوة «إن الله لا يغيّر مابقوم حتى يغيروا ماباًنفسهم». والسنن الطبيعية غير المادية لا حد لهـا ، ولكن الانسان لا يعلم إلا النادر منها ، وهذا هو السبب فى أن الله لم يجب نوحا عليه السلام حين دعا ربه لأن يكون ابنه معه ، لأن ابنه هذا «عمل غير صـــالح» ونوح عليه السلام لم يكن يعرف ذلك .

وكذلك فى خطاب نبينا عليه السلام «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» لأن العذاب كان حق عليهم ، ولو كان الدعاء ينفع فى استبعاد السنن الطبيعية أو تبديلها لنفع دعاء أفضل المخلوقات وأكرمها فى ذلك . والسبب فى هذا هو أن الدعاء سنة طبيعية كالسنن الأخرى لا تبدل غيرها ، ولكنها تكملها . والرجل الذى يضع ابنه فى فوهة المدفع ويدعو له بطول العمر لا ينفع

دعاؤه ، لأن السنة الطبيعية لا تلغى إلا بمعجزة على يد نبي ، وباذن الله ، وفى ظروف خاصة .

٢ — وما نقوله هنا لا يفسر كل السبب فى أن أكثر الدعاء لا يجاب ، كما هو المشاهد . والحقيقة أننا نقيس دعاءنا لله بدعائنا للانسان ، فالشخص الذى يطلب شيئا من شخص آخر ، يطلب هذا الشيء ويقول : إن هذا لمصلحتى ، وأنا أدرى بها ، وإن لم تفعل ذلك فكأنك لم تجب دعائى وطلبى . ولكن دعاء الشخص لربه يختلف اختلافا كليا ، فان طلب شيئا معينا مثل شفاء ولده أو رواج بضاعته فانه يطلبه وهو يجهل المستقبل ، ولا يعلم إن كان هذا الطلب فى مصلحته ومصلحة ولده أم لا ، وقد يكون المـــال سببا فى ارتكابه ما يؤدى إلى عذابه . وقد يكون موت ابنه خيرا له « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

فاذا أجاب الله دعاء الداعى فان الاجابة قد لا تكون كما يريد الانسان وينتظر ، ولكن كما يعلم الخالق أنه خير للداعى . والدعاء لله هو تضرع وتذلل ، وهذا هو المهم فى الموضوع ، والغرض ليس النتيجة الوقتية المطلوبة فى الدنيا

بل هو رضاء الخالق . والمتقون يتركون لسيدهم فعل الصالح لهم ويكفيهم رضاؤه ، وسيان ظهرت نتيجة دعائهم فى الدنيا أم لم تظهر ، لأن الغرض رضاء الخالق ، وهذا إن لم يظهر عاجلا فسيكون ظهوره آجلا فى الآخرة ، وهى الأهم . وقد لا يجاب الدعاء فى مدة حياة الداعى : « وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا مرجعهم » الآية .

وهنا يظهر جليا أن الدعاء دائما يجاب ، وأنه حقيقة وسنة ثابتة مثل ولادة الانسان وموته ، وأن الله يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، ولكن فى الوقت الذى تقضى به حكمة الخالق ، وليس كما يريد العبد . والدعاء هو فى الحقيقة طلب هداية ولو كان لشىء مخصوص ، وهنا فائدته الكبرى .

والشخص الذى يدعو ربه ويعلم أنه قريب منه ، يشعر بسعادة وباطمئنان فى الدنيا ، حتى لو لم يجب طلبه ، لأنه يعلم أن الله راض عنه ، وأنه هاد له ، و « من يهد الله فهو المهتد » . وهذه نتيجة عاجلة دنيوية للدعاء . فصاحب الدين (المتدين) يصبح فى وقت قريب مثل الفيلسوف القانع الذى لا يصل إلى درجته إلا بعد التفكير العميق المضنى ، وهو لا يقبل أن يستبدل بهذا الشعور كل نعيم الدنيا ، ومن هنا كانت سعادة

علماء الدين حتى لو لم يجب الله طلباتهم الدنيوية ، لأنهم يعلمون أنهم مقربون حقا إلى الله . وأنهم لن يكونوا أشقياء أبدا بدعاء ربهم .

والحقيقة أن الطلبات الدنيوية الخاصة الممزوجة بالطمع مثل العلو فى الدنيا مع ما فيه من ضرر لآخرين ، تعد غير صالحة ، لأنها ضد سنة إلهية أخرى «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا» الآية .

وما أحسن الدعوات العامة التى يتعلمها كل مسلم «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» .

٣ — وكثيرا ما يقال : إذا كان كل شىء مقدرا فما فائدة الدعاء ؟ والحقيقة أن الدعاء كما قلنا مثل السعى للرزق ، وكل أعمال الانسان ، وأنه سنة من السنن التى أمرنا بتصديقها ، فالإنسان يسعى للرزق مع علمه بالمقدر (وسنتكلم فى ذلك عندما تجىء مناسبته) ويضع البذور فى الأرض وينتظر نتيجة نموها مع علمه بالآية الكريمة «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» . فالدعاء لا يختلف أبدا عن ذلك ، غير أن الانسان عرف كثيرا من القوانين الطبيعية المادية ، وما زال

يبحث فيها ، ويجرى مجدًّا وراء معرفتها ، فان لم ينجح الزرع بحث عن السبب ولا يمتنع عن الزراعة .

والانسان جاهل بالسنن غير المادية ، ولم تخلق حواسه لأجلها ، ولذلك يصعب عليه فهم أسباب الفشل فى الدعاء ، وقد ييأس . ولكن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم أعلم الناس بهذا النوع الأخير من القوانين ، كانوا يدعون ربهم دائما مهما كانت نتيجة الدعاء .

إذا قلنا إن بذرة القمح تنتج قمحا ، فمعنى ذلك أنها سنة طبيعية أساسية لإنتاج القمح . ولكن هناك سنن كثيرة أخرى يجب استيفاؤها قبل نجاح الزرع ، وهذه كلها مكملة للسنة الأولى الأساسية ، وهى أن البذرة ضرورية ، فان نقص بعض هذه الشروط فان الزرع لا ينجح ، ولكن قد يستبدل بشروط أخرى فى ظروف أخرى . وأما البذرة فانها ضرورية ، ولا يمكن إلغاء هذا الشرط بأى سنة أخرى أبدا . وهكذا الحال فى السنن غير المادية . فالدعاء شرط أساسى للاجابة ، ولكن يجب استكمال شروط أخرى ؛ ولكن الأخيرة لا يمكن أن تلغى قيمة الدعاء .

والخلاصة أنه يجب أن نستمر فى الدعاء لقضاء حاجاتنا

كقانون إلهى ، وهو للمريض مثل الدواء أو الطبيب ، وسواء أظهرت فوائده أم خفيت علينا فلن يكون بدون ثمرة

شفاء سيدنا يعقوب وطريقته :

« وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » ٨٤ من سورة يوسف

البياض المصحوب بضياع البصر غالبا معناه «الجلوكوما». والمعروف عند الاختصاصيين فى أمراض العيون أن أهم سبب لها هو التغيرات فى الأوعية الشعرية ، نتيجة لأسباب كثيرة من أهمها الانفعالات العصبية (كما يحدث فى زيادة ضغط الدم) لا سيما الحزن (الدكتور سلر) .

« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون » :

لا تتحسن أعراض مرض « الجلوكوما » أو « شدة توتر العين » أو تقف شدته إلا بالعلاج ، ومنه العمليات الجراحية ، ولكن شفاء سيدنا يعقوب بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الانسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو

طريقة الشفاء وهى إرادة الله المنحصرة فى « كن فيكون » وهذه خارجة عن كل السنن الطبيعية التى أمر الانسان أن يتعلمها . فعظمة المعجزة ليست فى النتيجة فحسب ، ولكن فى طريقة الشفاء .

وما أعظم إعجاز القرآن الذى وصف حالة مرضية خاصة وبين سببها ، ولم يكن يعلم العالم شيئا عن هذا المرض ولا عن أسبابه فى ذلك الوقت ، ولا بعده بزمن طويل

دعاء سيدنا ابراهيم

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » :

الآية ٣٧ من سورة ابراهيم

آيات القرآن يفسر بعضها بعضاً ، ودعاء سيدنا ابراهيم يفسر ما قلناه ، وهو أن الدعاء سنة طبيعية لا أكثر ولا أقل ، فالنبى يدعو ربه ليلهم الناس حج البيت ، فهو يستعين بسنة طبيعية ، وهى إلهام الخالق لنا ، مع أنه يعلم أن الله قادر على أن ينزل عليهم رزقا من السماء ، ولكن النبى ضرب لنا

مثلا فى طريقة استعمال الدعاء وقيمته ، فالدعاء لا يلغى سنة طبيعية ولا يأتى بالمعجزات ، ولكن الداعى يطلب من الخالق الهداية إلى إحدى السنن الطبيعية ، وسأضرب لذلك مثلا بالنسبة للمريض وعلاجه ، فقد أخبرنى البعض أن من يطلب الطبيب لا يستعين بالدعاء . والحقيقة غير ذلك ، فالوالد الذى يدعو ربه لشفاء ولده :

١ — لا فائدة من دعائه إذا كان الولد قد مات فعلا ، كما قلنا سابقا .

٢ — لا فائدة من دعائه إذا كان مرضه مميتاً حتما ، وليس له علاج فى ذلك الوقت ، لأن الدعاء لا يخلق سنة جديدة ، ولا فائدة كذلك من أى علاج لأن المريض تحت تأثير سنة طبيعية ، وهى أن هذا النوع من المرض مميت حتما وعلاجه لم يكتشف إلى اليوم ، ولا فرق بينه وبين من مات فعلا أو فقد عضواً من أعضائه لا يمكن الاستعاضة منه بغيره ، ولو أراد الله شفاءه لما مرض بهذا المرض .

٣ — قد يكون للمرض طرق علاج ، أو قد يشفى من نفسه فى ظروف خاصة ، فالدعاء فى هذه الحالة معناه إلهام المريض ومن حوله من طبيب وغيره باستعمال الطريق المؤدى

إلى الشفاء ، والطبيب يحتاج دائماً الى هذا الالهام ، وكم من مرة يقف فى مفترق الطرق ولا يدرى أية ناحية يسلك ، وكل طريق سنة طبيعية تؤدى الى نتيجة خاصة ، والدعاء هداية الى السنة المؤدية الى الشفاء . وهكذا يكون الدعاء والتطبيب وكل أعمال الانسان يكمل بعضها بعضا ، ولكنها ليست متناقضة .

فدعاء سيدنا ابراهيم معناه أن الله يلهم الناس بواسطة القوانين الطبيعية حج البيت ، وقد يقال : « ولكننا لا نشعر بإلهام من عند الله ، وكل أفعالنا نتيجة مباشرة لتفكيرنا ، والشخص الذى يحج لا يشعر بالهام أو بشىء خفى » .

والحقيقة أن أفعال الانسان قد تكون :

١ — نتيجة تفكيره واختباراته ، ويكون سبب حركاته ظاهراً .

٢ — قد تكون أفعاله غير منطبقة على تفكيره واختباراته الأخيرة ولكنه مع هذا يندفع الى العمل . وقد ظهر بطريق الفحص العلمى المسمى (Psycho-analysis) (التحليل النفسى) وبطريق التنويم المغنطيسى أن هذه الأفعال يمكن تفسيرها بتجارب واختبارات حصلت للشخص

فى زمن سابق ، وبقيت فى مخه الباطنى (Subconscious)
وقد يكون نسيها تماماً ، ولـكنها تؤثر دائما فى أفعاله الحاضرة
دون علمه .

٣ ـــ قد تـكون الأفعال كالنوع الثانى ، ولـكن ليس
من السهل على علماء النفس تحليلها أو ردها الى تجـــارب
« الارادة الخفية » . وفى اعتقادى أن بعض هذه الأفعـال
كالأوامر التى يقوم بهـا المنوَّم « بفتح الواو وتشديدهـا »
امتثـالا لأمر المنوِّم « بكسر الواو وتشديدها » حتى بعد
اليقظة ، وهو يعتقد أنها من عنده ، ولا يشعر بأنها من تأثير
إرادة خارجة عنه .

وقد تكون هذه الأفعال من تأثير إرادة أشخاص آخرين
أو أشياء جامدة ، وما أكثر الاشياء التى يؤثر على الانسان
فعلها كالتنويم تماما ، ولا يشعر الشخص بها إلا كما يشعر
فى النوع الثانى ، ثم لا تعرف الا أنها نتيجة لارادته .
والحقيقة أنها هداية من الله بواسطة حواس غير الحواس
الاعتيادية ، خلقها الله فى الانسان ، ولم يدرسها العلم بعد ،
وهذه كالمنوَّم « بفتح الواو وتشديدها » تؤثر فى أفعاله بغير
أن يعرف مصدرها ، وقد ثبت لبعض علماء الفزيولوجيا

وجود حس فى بعض الأفراد على الأقل سموه الحس السادس .
وكثيرا ما نشاهد أشخاصا لا يفكرون فى الحج مدة طويلة ، ولكن فجأة وبدون سبب ظاهر يصممون على الحج وينفذون إرادتهم ، وهذا العمل ظاهره الاختيار طبعا ، ولكنهم مدفوعون بقوة مسيطرة عليهم أشبه بالغريزة أو الوحى (Impulse) . وقد أجاب الله النبى الى دعائه ، فألهم الناس الحج فى آلاف السنين ، والى ما شاء الله ، لا فى مدة حياته فحسب . وفى هذا إظهار لقدرة الخالق وصدق وعده .

القرآن ولقاح الازهار والنبات

« وأرسلنا الرياح لَوَاقِحَ فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » :

الآية ٢٢ من سورة الحجر

لقاح الأزهار والنباتات على العموم يحصل من شجرة الى شجرة بواسطة الهواء أو الحشرات ، أو بواسطة الانسان ، وأهمها الهواء . والقرآن يتكلم عن فائدة من فوائد الهواء الذى ينقل نطفة الذكر الى الأنثى ، وذلك قبل أن يتقدم علم تشريح النباتات ، وقبل أن يعرف شيء عن ذلك بمدة طويلة ، فما أصدق القرآن وما أعظم إعجازه !

طريقة انجاز ارادة الخالق

« إنما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » :
الآية ٤٠ من سورة النحل

هذه الآية الكريمة تعلمنا طريقة انجاز ارادة الخالق ، وهي تختلف عن انجاز ارادة كل المخلوقات ، فالانسان يستخدم السنن الطبيعية المادية بازدياد العلوم وتقدمها ، فهو يعرف مثلا أن بذرة القطن لا يمكن أن تنتج قمحاً ، وأنها لا تنتج غير القطن ، وأنها تموت بدون الماء ، وهكذا تجرى السنن التي لا تتبدل أبدا ، ويستخدم المخلوق أيضا بعض سنن غير مادية أمرنا الله بها ، مثل « ادعونى أستجب لكم » ومثل « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » ومثل « لئن شكرتم لأزيدنكم » ، فهذه أيضا سنن ثابتة لا تبديل فيها ، مثلها مثل

الأولى تماما، ولو أن من الصعب علينا تطبيقها ، بخلاف السنن المادية. والأنبياء عليهم السلام يعلمون كثيرا من النوع الثانى « وإنه لذو علم لما علمناه » فى قصة يعقوب .

أما الخالق جل وعلا فارادته ليست مقيدة بسنة أبدا، ولا نعلم من طرق انجازها إلا « كن فيكون » . وهذا هو الفرق الأساسى بين المعجزة التى من صنع الله مباشرة، وبين أفعالنا المقيدة بالسنن الالهية .

العسل

فى القرآن والطب الحديث

«ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذُلُلا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون» الآية ٦٩ من سورة النحل

ما أصدق الآية الكريمة «فيه شفاء للناس» عند ذكر عسل النحل وتركيبه الكيماوى ، وهو :

٢٥ — ٤٠ ٪ دكستروز (جلوكوز)

٣٠ — ٤٥ ٪ ليفيلوز

١٥ — ٢٥ ٪ ماء

(والجلوكوز) الموجود فيه نسبة أكثر من أى غذاء آخر هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض ، واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فيعطى بالفم ، وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفى الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ومغذيا ، وضد التسمم الناشىء من مواد خارجية مثل الزرنيخ والزئبق

والذهب والكلوفورم والمورفين الخ ، وضد التسمم الناشىء من أمراض أعضاء فى الجسم مثل التسمم البولى ، والناشىء من أمراض الكبد والاضطرابات المعدية المعوية ، وضد التسمم فى الحميات مثل التيفويد والالتهاب الرئوى والسحائى المخى والحصبة ، وفى حالات ضعف القلب وحالات الذبحة الصدرية ، وبطريقة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكلى الحادة ، وفى احتقان المخ ، وفى الأورام المخية الخ .

وقد يقال : وما أهمية هذه الآية مع أن كل أنواع الغذاء لها فوائد ، وقد ذكر العسل لأنه غذاء لذيذ الطعم وبطريق المصادفة ؟ فالحقيقة هى أن أنواع الغذاء الأخرى لا تستعمل كعلاج إلا فيما ندر من الأمراض الناشئة عن نقصها فى الغذاء فقط ، وهذه الفواكه التى تشبه العسل فى الطعم فان السكر الذى فيها هو سكر القصب أو أنواع أخرى ، ولكن ليس فيها إلا نسبة ضئيلة من « الجلوكوز » الذى هو أهم عناصر العسل.

وإذا علمنا أن (الجلوكوز) يستعمل مع (الأنسيولين) حتى فى حالة التسمم الناشىء عن مرض البول السكرى ، علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة ، ولكنه تنزيل ممن خلق الانسان والنحل ، وعلم كلا منهما علاقته بالآخر

القرآن وبدء الخلق

والحياة والموت وما بعده

« يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقنا كم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا »

سورة الحج الآية ٥

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون » .

سورة المؤمنون الآيات ١٢ — ١٥

« أمن يبدأ الخلق ثم يعيده » سورة النمل الآية ٦٤

« أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ

الخلق، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة، إن الله على كل شىء قدير»
سورة العنكبوت الآيتان ١٩و٢٠

«الله الذى خلقكم من ضَعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشَيبة، يخلق مايشاء، وهو العليم القدير» سورة الروم الآية ٥٤

«ما خَلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير». سورة لقمان الآية ٢٨

«الذى أحسن كل شىء خلَقه وبدأ خلق الانسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة. قليلا ما تشكرون». سورة السجدة الآيات ٧ — ٩

«إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم، وكلَّ شىء أحصيناه فى إمام مبين». سورة يس الآية ١٢

«سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون». سورة يس الآية ٣٦

«يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم له الملك» سورة الزمر الآية ٦

« أإذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » .

سورة ق الآيتان ٣ و٤

« وقد خلقكم أطوارا » « والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا » .

سورة نوح الآيات ١٤ و١٧ و١٨

« ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدَر معلوم ، فقدَرنا فنعم القادرون » .

سورة المرسلات الآيات ٢٠ — ٢٣

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق »

سورة العلق

« يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم »

سورة الزلزلة

« وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »   سورة الاسراء الآيتان ١٣ و١٤

« ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد

كل أولئك كان عنه مسئولا » .

سورة الاسراء الآية ٣٦

« ووُضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا » سورة الكهف الآية ٤٩

« حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء » .

سورة فصلت ٢٠ و ٢١

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه » .

سورة الروم ٢٧

هذه الآيات الكريمة يفسر بعضها بعضا ، وبعضها لابد أنه كان صعب الفهم على العرب وقت نزوله ، وهو ما يزال كذلك ، إلا إذا نظر اليه على ضوء العلم الحديث ، وسيزداد وضوحا بلا شك كلما تقدمت العلوم

إن العالم الكبير إذا دعى لمخاطبة أطفال أو جهلاء فانه يخاطبهم على قدر عقولهم، ولكنه لا يقول إلا حقا، وعند الضرورة يقول الحق كله، ولذا قد يسمعهم بعض ما لا يفهمونه، فان تكلم عن تعريف القاهرة مثلا، فقد يقول إنها عاصمة القطر المصرى أحد ممالك أفريقيا، مع أنهم قد لا يعرفون معنى «لأفريقيا» ولكنهم يفهمونها بعد أن يزيد رشدهم. ويرى العالم أن التعريف بدون لفظة إفريقيا ناقص. وسيظهر نقصه لهم فى المستقبل.

كذلك الحال فى بعض آيات الكتاب الكريم، فالقرآن ليس كتاب طب أو هندسة أو أى علم من العلوم. ولكنه وقد رد على أسئلة المشركين، كان يجيبهم على قدر عقولهم، على أنه لا يقول إلا حقا، فالأمة العربية التى كانت فى أعلى درجات الفصاحة آمنت به وبما أمكنها فهمه من آياته، وما لم يمكنها فهمه ردته الى المجاز، أو آمنت به اجمالا، ولو لم تفهم تفصيله، لوثوقها أن كل ما جاء فى القرآن هو من عند الله تعالى.

أما من خلفوا الأمة العربية بعد ذلك فقد قلت فصاحتهم وزاد إدراكهم، فهم يحكمون علمهم، ولا يصدقون ما لا

ينطبق عليه ، وقد كشف العلم الحديث عن معنى بعض الآيات ، وسينكشف الباقى منها كلما تقدمت العلوم ، ثم يأتى وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلى الدين .

وفى الآيات القرآنية المتقدمة كثير من الحقائق التى لم يعلمها العلماء الا بعد مرور ألف سنة على الدين الاسلامى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» .

هذه الآيات تجيب بصراحة على أربعة أسئلة ما فتىء الانسان ، الجاهل والفيلسوف ، يبحثان عنها كل منهما على قدر عقله :

(١) كيف بدىء الخلق ، أى كيف خلق أول إنسان ، وكيف يخلق باقى المخلوقات ؟

(٢) تطورات الجنين

(٣) حياة الانسان على الأرض وبعد الموت

(٤) النشأة الثانية أو البعث أو الحساب

١ — بدأ الله الخلق من طين ، ولم تتقدم العلوم لتثبت ذلك ، وسيأتى الوقت الذى يثبت فيه هذا حتما «قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» . وكل ما يقال عن مذهب النشوء والارتقاء ومذهب «دارون» الخ ، لا يزال فى

دور التجربة ، ولم يثبت منه شيء بصفة قاطعة أبدا . ومما يسهل فهمه أن خلق أول المخلوقات هو من نفس المادة التى يخلق الله منها جميع المخلوقات . وقد أخبرنا القرآن أنها من ثلاثة أشياء :

(ا) مما تنبت الأرض .

(ب) من أنفسهم .

(ج) ممـا لا يعلمون .

(ا) فالجسم الحى ينمو بأن يحول ما يأ كله الى جزء حى من جسمه ، وهذه هى أهم مميزات الحى ، وما يأ كله الطفل حتى يصير رجلا لا يخرج عن كونه مأخوذا من الحيوان أو النبات . والحيوان أصله من النبـات . فالـكل مأخوذ من النبات الذى ينمو من مواد الأرض والهواء . وهكذا يكون جسم الانسان كله من الطين الذى يتحول بقوة الحياة فيه كما يتحول الماء الى بخار بقوة الحرارة .

(ب) « من أنفسهم » أى من النطفة التى تمنى .

(ج) « ممـا لا يعلمون » تفسرها سورة السجدة « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » . فهناك شيء آخر هو « الروح » وهو خارج عن الطين ، وقد تقدمت علوم المادة حتى ظن

العلماء أن المخ والغدد ذات الافرازات الداخلية تفسر كل أفعال الانسان ، ولكن كثيرا منهم أخذ يعترف بأن هذا لا يكفي ، وذهب فريق الى أن بعض الأشعة الكونية النائية قد يكون له تأثير في المادة المخية . وما زلنا لا نعلم كثيرا مما يقع بين علماء المادة ، وعلماء المادة والروح من سوء تفاهم . فيقول الأولون : إن المخ اذا أصيب بمرض تأثرت القوى العقلية بل الأخلاق وغيرها الخ . وهذا دليل على أن المادة هي كل شيء . ومن المدهش أن من أكبر العلماء من يحتج بذلك على أنه لا وجود للروح ، مثل « كيث وسمث » وغيرهما . والحقيقة أن المادة ضرورية لاظهار شيء خفي عنا ، ومثلها مثل عدة المسرة « التليفون » فانها ضرورية لسماع صوت من يتكلم ، واذا أصيبت المسرة بضرر اختل الكلام ووقف ، ولكن المسرة ليست منشأ الكلام مطلقا ، وقد أقنع شرلوك هلمس كثيرين من معارضيه بذلك . وهذا لا يثبت طبعا وجود الروح ، ولكن يجعله ممكنا . وهذه هي آخر درجة معرفتنا ، أو بالأحرى (جهلنا) . والمهم أنه لم يظهر شيء للآن يتنافى مع هذه الآيات

والله جلت قدرته يخاطبنا على قدر عقولنا ، ويتكلم عن

النشأة الأولى وعن بدء الخلق ، كأنه تعالى قد اختص ببدء الخلق فقط ، مع أن الله بدأ الخلق وسن السنن الالهية الطبيعية (ومنها خلق الكون كله) التى لا تبديل فيها أبدا لكى تكفل وجود النوع الانسانى ما دامت السموات والأرض ؛ وهكذا يكون معنى خلق آدم عليه السلام بعد خلق السموات والأرض والسنن الالهية ، خلق العالم كله الى النهاية التى أرادها الخالق وقت بدئها . وإذا كان صانع « الأوتوموبيل » عند ما يأتى بالمواد الخام التى يستعملها يتصور فى مخيلته شكل الأوتوموبيل النهائى وسرعته الخ مع أنه لا يتحكم فى الحوادث التى قد تطرأ عليه ويجهل كثيرا منها ، أفلا يعلم الخالق الأول كل ما سيكون عند بدء الخلق مع أنه واضع السنن كلها ، وهذه السنن لا تتغير أبدا ؟ فالحقيقة أن الله بدأ الخلق ، والله خلق كل شىء ، وهذا هو معنى الآيات « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » و « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث » .

٢ — تطورات الجنين : يقول تعالى : إنه يكون أولا نطفة ثم يصير علقة . وصحيح أن شكله يكون مستطيلا مثل العلقة تماما ، ويستمر كذلك فى الأربعة الأسابيع الأولى تقريبا .

وإذا عرفنا أن طوله حينئذ لا يزيد على خمس السنتيمتر الواحد، وأنه لا يميز بالعين المجردة تمـــاما، وأن أول ميكروسكوب عملت فى سنة ١٦٨٣ أى بعـد ألف سنة من نزول القرآنـــ عرفنا أنه كلام الله تعالى.

على أن الجنين يصير بعد ذلك مستديراً بغـير انتظـام ومكورا، ويبقى كذلك بضعة أسابيع. وقدسماه الخالق مضغة لكثرة الشبه بينه وبين قطعة اللحم الممضوغة، وبعدهـا تظهر العظام واللحم (العضلات) التى تتصل بهـا كما وصفت تماما.

ويعلمنا القرآن أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات، هى الغشاء المنبارى، والخوربون، والغشاء اللفائفى (الترجمة من قاموس الدكتور شرف) مع أنها لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق، وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة.

وقدظهر للعلماء أن تاريخ الانسان الجنينى هو تاريخ للحياة منذ بدئت على ظهر الأرض، فهـو أولا يشبه الحيوان ذا الخلية الواحدة، ثم ذا الخليات المتعددة، ثم يشبه الحيوانات المائية والحيوانات ذات الثديين الخ، وتاريخه تاريخ مذهب النشوء والارتقاء.

وقد لخص القرآن ذلك فى قوله : « وقدخلقكم طوارا »
٣ — حياة الانسان والموت .
٤ — بعثه وحسابه .

ادوار حياة الانسان كما وصفها الكتاب الكريم :

لقد وفى هذه المسائل حقها من البحث العلماء وخصوصا الأطباء ، وهى تطابق تماما ما ورد فى القرآن الكريم . وأما الموت فقد شبهه الله بالنوم ، وما أعظم الشبه بينهما ! والنوم هو موت جزئى للأعضاء ، وكما أن النائم يستيقظ كما يشاهد ، كذلك الميت أيضا يستيقظ ولو لم يشاهد ، إلا باذن الله وعلى أيدى الأنبياء ، ومن لم يشاهد ذلك يجادل ويقول : كيف نبعث ثانية بعد أن نكون عظاماً وترابا ؟ والله يجيب على ذلك بقوله : إن الانسان خلق من طين ، وإنه يعلم ما يدخل فى تركيبه علما تاما « ألا يعلم من خلق » « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » . وبهذا يمكنه أن يعيده سيرته الأولى .

وتتحول المادة من شكل الى شكل ، ولكنها فى صندوق الكون لا تفنى أبدا ، وكما أن الماء لا يفنى بتحوله إلى ثلج

أو بخار، كذلك يتحول الطين إلى نبات وحيوان، ثم إلى جسم إنسان، ثم إلى التراب ثانيا، ثم يعيده الله كما كان.

وقد علمتنا العلوم أن معنى « كتاب حفيظ » ليس بالمعنى المعروف، ولكنه سجل أدق وأوفى. والانسان الضعيف قد صنع آلات تسجل من نفسها، والله صنع هذا الكون كله كآلة عظيمة تسجل كل شيء «كتاب حفيظ». فالانسان إذا تكلم انتشر صوته فى الفضاء كله دون أن يشعر، بل قد أمكن الانسان أن يسجله ويستعيده عند الحاجة بعد زمن طويل (الراديو والفونوغراف)

وكما أن الصوت يسجل تسجيلا، أفلا يكون ذلك بالنسبة لكل حركاته وسكناته، بل قد يتقدم العلم ونعرف أن أفكار الانسان يمكن قراءتها على بعد كبير، بل يمكن تسجيلها. فالانسان جسم صغير فى آلة كبيرة دقيقة حساسة تتأثر وتسجل كل حركات هذا الجسم وما يطرأ عليه لتستعيده عند الحاجة.

وقد شبه الله هذا التسجيل بآثار القدمين التى يعرفها العرب جيدا، فقال « إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم، وكلَّ شيء أحصيناه فى إمام مبين ». وهذا هو كتاب الكون

الذى يقول الله فيه : « لا يضل ربى ولا ينسى » و« شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » ويقولون : « لم شهدتم علينا ؟ » فتقول : « أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » . ويقولون « ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحدا » . وسيرى الانسان أعماله نفسها فى المرآة ، ويرى صورة دقيقة لكل أفعاله وأفكاره كما كانت تماما ، فهو نفس المتكلم ونفس الفاعل « وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

والسنن الطبيعية علمتنا أنه لا يوجد شىء فى هذا الكون بلا فائدة ، فالانسان مع ضعفه قد استخدم السنن الطبيعية وأمكنه أن يسجل الصوت ويستعيده بعد زمن طويل ، أفلا يكون هذا دليلا على أن التسجيل لا بد أن يكون لمهمة كبرى ، وأن الطبيعة لا تسرف أبدا ؟ « إنا كلَّ شىء خلقناه بقدَر »

فالله يسجل كل حياة الانسان ليستعيدها يوم البعث ، وهذا

أهون من بدء خلق الانسان ، فالنشأة الثانية إعادة ، وهى أهون من الأولى ، وهما بالاضافة الى قدرة الله تعالى سيان ، كما قال الله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » . وهكذا نرى القرآن لا يبالغ أبداً كما نفهم من معنى المبالغة فى كلامنا ، حتى فيما لا ندركه تماما .

وقد يقال : إن إحياء الموتى قد يكون فى المستقبل على يد أطباء مع أن الله يقول : « إنا نحن نحيي الموتى » وذلك لما يقرؤه الناس أحياناً فى الجرائد عن إحياء الميت ورجوع الحياة إليه بعد وقوف علاماتها مثل التنفس والنبض .

والحقيقة هى أن هناك فرقا كبيراً بين الموت العادى كما يفهم الناس من وقف الأعضاء عن العمل كعدم اشتغال المخ أو وقوف القلب ، وبين الموت العلمى الحقيقى ، وهو لا يكون بوقوف عمل الأعضاء فقط ، ولكنه يكون بموتها . ولو أخذ القلب من ميت عادى بعد وقوف ضرباته ووضع فى محلول مخصوص لاستأنف ضرباته كما كان فى جسم الانسان من بضع ساعات ثم يموت ، ولا يمكن أن يضرب بعد ذلك مهما عمل فيه . وهذا هو الموت الحقيقى الذى يتحلل بعده الانسان إلى عناصره الأولى . وقد يتوصل الطبيب — وقد توصل

أحياناً — إلى إعادة الحياة فى الميت العادى ، أى أن القلب يعود فيضرب مدة قصيرة بعد وقوفه ، وقبل أن يكون قد بدأ فى التحلل ، أى قبل موته الحقيقى .

وأما أن العلم يصل إلى إعادة الحياة بعد التحلل فهذا مستحيل ، لأنه لا فرق بين إعادة الحياة إلى جسم ميت تماما ، وبين إيجاد حياة فى الجماد مثل الطين .

كلمة ختامية

الانسان والكون

وحكمة المصائب وخصوصا الامراض

يسأل كل عاقل نفسه : (١) ما علاقته بهـــذا الكون والمخلوقات العديدة التى تحيا وتعيش مثله ، وتتمتع بكل ما يتمتع به من المادة : هل خلق الكون لأجله ؟ وهل هو أرقى من كل المخلوقات التى يراها والتى قد لا يراها ؟

(٢) إذا كان الانسان أرقى المخلوقات فلمَ تتغلبُ عليه الطبيعة أحياناً ، وقد تذهب بحياة الألوف من أفراده ، وكثيراً ما تؤذيه حيوانات صغيرة لا ترى بالعين المجردة أو بالميكروسكوب ، وتتولد بسرعة مدهشة فى جسمه وتقضى عليه كما يقضى هو على الحيوانات التى يستعملها فى غذائه ، وقد تعيش الحيوانات السفلى مثل الناموس والبق والقمل

على دمه ، بل فى الوقت نفسه تلقحه بأمراض مهلكة ، وكأنها لم تخلق إلا لإلحاق أكبر الضرر بالانسان ؟

ما السر فى كل ذلك ؟

يقول الطبيعيون : لا معنى لذلك إلا أن الطبيعة عمياء تتخبط ، ومثلها كما لو سرحت جميع الحيوانات من أقفاصها فى حديقة حيوانات كبيرة لظهرت حرب شعواء بينهم كالتى تحصل الآن . ولا يمكن فى نظرهم أن يكون هذا فعل عاقل مدرك ، أو نظاما لا تصل اليه عقولنا .

أما السؤال الأول : فلا يمكن الاجابة عليه من طريق العلم ، لأن الحواس محدودة ، وقد يكون هناك مخلوقات لا ندركها ، وقد تكون أرقى من الانسان وتؤثر فى الطبيعة وفيه ، ولذا فيجب الايمان بما أنزل الله :

١ — « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور »

٢ — « وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون» . «والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون »

٣ — « الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون »

٤ — « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مُقرِنين

٥ — « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون »

٦ — « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض ، والفلك تجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه ، إن الله بالناس لرءوف رحيم »

٧ — « والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم »

٨ — « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين »

٩ — « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين »

١٠ — « وأرسلنا الرياح لواقح »

١١ — «وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

١٢ — « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه »

من كل هذه الآيات يظهر جليا أن الأرض والسماء والنجوم والشمس والقمر والجبال والرياح والنبات والحيوانات كلها مسخرة للانسان ، خلقت لفائدته ، ونعمة وبركة عليه . وهنا يزداد العاقل حيرة ، ويريد الجواب على السؤال الثانى ، لأنه إذا ثبت أن الكون كله قد سخر ليحيا الانسان حياة طيبة ، فلم هذا التناقض وأدنى الحيوانات تؤذيه ، وحوادث الطبيعة كثيرة وتهدم آماله ، وكأنه أمامها لا فرق بينه وبين الجماد وهو كالريشة فى مهب الريح ؟

(٢) والجواب على ذلك أن الله الذى خلق الخلق وعلم تركيبهم ، علم أن الانسان الضعيف لا يعرف الشىء إلا بالمقارنة لشىء آخر ، فالشىء الصغير صغير فقط بالنسبة لشىء أكبر ، والكبير كبير فقط بالنسبة لشىء أصغر ، والصحة لا يعرفها تماما إلا بالمرض ، وكل نعمة لا تعرف جيدا إلا وقت زوالها ، بل

ما أكثر نسيان الانسان ، وقد ينسى معنى الجوع إذا شبع مع أنه كان جائعا من وقت قصير ، ولذا فهو محتاج إلى التذكير دائما ، والقليل جدا من الأفراد يكفيهم العظة بمشاهدة غيرهم ، ومع ذلك فلن تبلغ منهم غايتها إلا إذا كانت فى أنفسهم

هذه هى طبيعة الانسان الذى خلق بها مهما ارتقى . وهذا هو السر فى كل مايصيب الانسان من أذى على يد الطبيعة ويد الحيوانات ، بل هذا هو السر فيما كان يصيب الأنبياء أنفسهم ، وقد شعروا بالجوع والسجن والهزيمة وكل أنواع العدوان حتى اعتدى عليهم بالقتل .

وإذا كان الدور الذى يمثله الانسان بل والحيوان والجماد هو تسبيح الخالق « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » «وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون » « سبح لله مافى السموات وما فى الأرض » «ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها »

فهذا التسبيح من الانسان المدرك لا يكون كاملا إلا طوعا

كما نصت عليه الآية الكريمة . وهذا لا يكون إلا إذا علم مقدار نعم الله عليه « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » وهذا لا يكون إلا بالحرمان منها أحيانا ، قال تعالى « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » ونقص الأنفس لايكون إلا بالمصائب « ونبلوكم بالشر والخير » « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .

وكم من مصيبة أعقبها إصلاح حال الشخص وتركه لكل معصية . وما دامت الدنيا دار امتحان فقط فالغنى السليم لا يفضل الفقير المريض إلا إذا شكر الله الأول ، وجزع الثانى ولم يصبر

وكما أن الذى يقوم بدور الخادم على المسرح ويجيده يعد أعلى درجة فى نظر المتفرجين ممن يقوم بدور الملك ولا يتقنه ، كذلك فى هذه الحياة الدنيا: خادم أمين أعلى درجات عند الله من ملك ظالم ، لأنه — سواء على المسرح أو فى الحيـاة الدنيا ، وكلاهما لهو ولعب — ليس المهم الدور الذى يلعبه الشخص ، لأن هذا يوحيه نوع العمل ، قال تعالى « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » ولـكن المهم الطريقة التى يقوم بها الممثل ، ولله المثل الأعلى .

لو لم يكن فى المصائب فوائد غير ذلك لـكنى ، ولـكن المبدع الأول والقادر الحـكيم أراد أن لا تخلو المصائب فى ذاتها ووقت حصولها من فوائد كثيرة للفرد وللمجموع ، وبعضه أثبته العلم الحديث ولم يكن معروفا بالمرة قبل خمسين سنة فقط

(١) الأمراض تقضى على كثير من الضعفاء ، ويبقى الصالح للبقاء ، ويكون عنده مناعة Immunity ولو جزئية للنسل، وبهذا يرقى النوع الانسانى ويزيد فى مقاومة الأمراض وتحدث تغيرات فى الغدد الداخلية تؤثر على جسمه وعقله فتدفعه إلى الامام فى طريق الرقى

ولا يزال العلم فى دور الطفولة بالنسبة للفوائد التى يجنيها النوع الانسانى من الأمراض . والأمثلة كثيرة :

فقد شوهد عقب الحمى التيفودية نمو فى الجسم لزيادة إفراز الغدد الصماء ، ومناعة ضد الروماتزم . ومن هنا استعملت الميكروبات (المبية) للتيفود فى علاج الروماتزم المزمن .

وشوهد أن حمى الملاريا تشفى من مرض الزهرى فى النخاع والمخ . وقد استعمل ذلك بطريقة منظمة فى كل مستشفيات العالم ، أى يعطى المريض ميكروب الملاريا فى

الدم ، ويحدث عنده حمى ملاريا باختياره لشفائه من أمراض أخرى أشد وطأة .

وسم الحية والثعبان يستعمل فى الروماتزم المزمن وألم السرطان . كذا الالتهاب الرئوى والأنفلونزا أحيانا تشفى من أمراض ميكروبية فى الدم . وقد ظهر أن وجود حمى صناعية تفيد كثيراً من الأمراض . وأخيرا الدود الذى يظهر فى الجروح المتقيحة القذرة ظهر أنه يفيد جدا ، وقد ينجى المريض من الموت ، ويستعمل الآن بطريقة منظمة طبية فى المستشفيات فى علاج الجروح الشديدة . وكلما تقدمت العلوم ظهر أن كثيراً من الأمراض نعمة على النوع الانسانى .

خذ مثلا آخر فصول السنة ، فقد يتساءل الانسان ويقول : لو كان الكون مسخرا للانسان لكان هناك فصل واحد تعتدل فيه الحرارة والرطوبة حتى لا يشعر الآدميون بحر أو برد . والحقيقة أن تجارب عديدة فى سويسرا وغيرها أثبتت أن المصابين بأمراض مختلفة اذا عاشوا مدة قصيرة فى طقس فوق الجبال خال من الرطوبة والبرودة فصحتهم تتحسن بسرعة ، ولكنها بعد أشهر يقف هذا التحسن ، وقد تتأخر ، فاذا انتقلوا إلى طقس آخر ولو أقل اعتدالا من الأول تحسنت صحتهم ، وبعد أشهر أخرى يزيد هذا التقدم اذا أعيدوا

إلى الطقس الأول الذى كانوا فيه . وهكذا فى تقلبات الجو تنبيه للأعضاء . والصحة لا تكون على أكملها إلا بهـــذه التغييرات الجوية .

وبالاختصار فكل شىء فى الحياة فيه عظة وعبرة ، ولم يخلق عبثاً ، وما كان يظهر لنا أنه عديم الفائدة أو مضر بالانسان ظهر له فوائد ، ومع تقدم العلوم لا يبقى شىء الا و تظهر ضروريته للنوع الانسانى .

وما أشد جهلنا وظلمنا اذا ما انتقدنا هذا الكون . وكان شكسبير صادق القول عند ماقال "Sermons in stones and good in everything" أى فى الصخور عظة وفى كل شىء فائدة .

قال تعالى «وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» وقال «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم»

والخلاصة أن الذى يتتبع سير العلوم وتطور النظريات يوقن أننا لا نزال بعيدين كل البعـــد عن أسرار الكون ، وأننا لم نصل إلى معرفة « حقيقة الشىء ذاته » على حد تعبير الفليسوف شوبنهور « The thing in itself » . ولو أنصف الانسان نفسه لعلم أن الخير فى أن يؤمن إيمان العجائز ، وأن يكون دائماً شاكراً صابراً غير مجادل ، قائلا « اهدنا الصراط المستقيم » .

فهرس

صفحة

صفحة

تصحيح

ص	س	خطأ	صواب
١٤	٤	فى كميتها	لا فى كميتها
٥٠	٦	خلق سنة	فأساسها خلق سنة


65